دكتور
محمود يوسف كريت

تاريخ الدعوة الإسلامية
في
صدر الإسلام والدولة الأموية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبدا) .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد المبعوث للناس بشيرا ونذيرا ، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين حملوا الراية من بعده ، وقاموا بحق الرسالة والإعلام بها حتى عم العلم بها أكثر من يجاورونهم رضى الله عنهم وأرضاهم وأثابهم على ماقدموا من بيان للرسالة .

أما بعـــد :

فقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ — بشيرا ونذيرا فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وكان المثل الأعلى لأمته فى دعوته وعبادته ، وفى سلمه وحربه ، ومع أهله وأصحابه فكان صورة حية يتمثل فيها قول الله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » (١).

وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

وكانت دعوته الصادقة وأخلاقه السامية سببا فى إقدام الكثيرين على الإيمان برسالته ومناصرتها ، والتبشير بها ، كما كانوا قدوة صالحة ، وأسوة حسنة يدعون بأمر الله إلى دين الله .

---

(١) ن : ٤ (٢) رواه ابن ماجة .

والدعوة إلى الله — عز وجل — حياة الأديان ، فما قام دين ولا ثبت مبدأ ألا بالدعوة إليه ، وما تداعت ملة ولا درست بعد رفعة ، ولا تلاشت شرعة بعد قوة إلا بترك الدعوة إليها حتى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة إليها وتقوى والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل وتزول ، ولو كان الحق يقوم بنفسه وينشر بذاته لما فرضت الدعوة إليه ، ولما كانت هناك حاجة إلى إرسال الأنبياء إلى الخلق مبشرين ومنذرين ، ولا إلى العلماء العاملين ، ولا إلى المرشدين الناصحين ولما كانت الدعوة إلى الله هي أحسن القول ، ولما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينبه إلى أن طريقته ومن كان على شرعته هي الدعوة إلى الله على بصيرة قال تعالى « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني » (١) .

وهذه الآية الكريمة تدل على أربعة أمور :

الأول : أن دعوة المؤمنين من أتباع النبي — ﷺ — واجبة ، وأنه من تخاذل عنها لا يعد تابعا النبي — عليه الصلاة والسلام .

الثاني . أن تكليف النبي — عليه الصلاة والسلام — بتبليغ رسالة ربه تكليف لأمته لا يتخلى عنه مؤمن ، ولا يتركه أمين .

الثالث : أن يكون الداعي له بصر بالأمور يأتيها من طرقها المسلوكة في رفق ، لينا في دعوته ، يأتي الأمور من مصادرها ومواردها ، مؤمنا بها على بينة من أمرها لا تأخذه في الحق هوادة ، وليس للباطل عنده أرادة .

الرابع : أن الايمان وحده لا يكفي في اتباع النبي — عليه الصلاة والسلام — بل لابد لكمال الإتباع من الدعوة فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما الله يريد ظلما للعباد .

من هذه الأمور المستفادة من الآية السابقة أنطلق الصحابة ومن بعدهم التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين — يبلغون رسالة الله سبحانه إلى

الناس ويبذلون فى سبيل ذلك أقصى ما يستطيعون لإعلاء كلمة الله ورفع راية الاسلام فى كل ربوع العالم .

وسأقوم بدراسة تاريخ الدعوة الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية مبينا مدى ما بذله المسلمون من جهد فى سبيل نشر الدعوة سائلا المولى — عز وجل — أن يوفقنى إلى عمل الصالح وصالح العمل إنه نعم المولى ونعم النصير .

المبحث الأول

الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق . وأنزل عليه القرآن الكريم دستوراً كاملا للدعوة الإسلامية لما اشتمل عليه ذلك الكتاب من بيان أسس العقيدة ،وأحكام الشريعة ، ومكارم الأخلاق . وقصص الأولين ، وسير الأنبياء السابقين .

وقد تولى النبي — عليه الصلاة والسلام — تبليغ الدعوة بنفسه ، وسلك فى سبيل ذلك كل الوسائل التى تفتح القلوب وتشرح الصدور لقبول هذه الدعوة ، فكان — عليه الصلاة والسلام يدعو من يلاقيه من الناس فرادى وجماعات ، كما كان يرسل نفراً من أصحابه الذين علموا الإسلام وفقهوا أحكامه إلى بعض الأقوام فى شبه الجزيرة العربية، يهدونهم ويعلمونهم ومن العرب من كان يطلب من الرسول — عليه الصلاة والسلام — فقهاء فى الدين ليعلموهم ويفقهوهم فكان — عليه الصلاة والسلام — يبعث إليهم بما يريدون كما كان — عليه الصلاة والسلام — يبعث لمن لم يدخل الإسلام ممن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم:

فقد أرسل إلى جزء من اليمن أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل دعاة وهداة وأرسل فى الجزء الثانى خالد بن الوليد ولكنهم لم يستجيبوا له. فأرسل إليهم عليا بن أبى طالب فاستجابوا ثم أمهم من بعد دعوته إلى الصلاة :

ولم يكتف النبي — عليه الصلاة والسلام — فى تبليغه رسالة ربه بالرسل يرسلها إلى الأقاليم قاصيها ودانيها سهلها ووعرها بل تجاوز فى

تبليغ إلى غير العرب فأرسل إلى هرقل ملك الروم بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، كما أرسل كتابا إلى المقوقس عظيم مصر وإلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس وغير هؤلاء . ومنهم من رد رداً جميلا وإن لم يستجب لدعوة الحق ، ومنهم من قبح رده وأخذته العزة بالإثم وهو كسرى ملك الفرس إذ مزق كتاب النبى — صلى الله عليه وسلم — فمزق الله ملكه .

وهكذا كانت دعوة النبى — عليه الصلاة والسلام — ماضية قائمة يدعوا بنفسه وبرسله وكتبه حتى بلغ رسالة ربه وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين :

هذه هى أرض الدعوة فى عصر النبوة حرثها الرسول — عليه الصلاة والسلام وأعانه على زراعتها ، صحابته المهاجرون والأنصار ، ووضعوا فيها بذور الإسلام تشريعا وتخطيطا على الصعيد الداخلى للجزيرة العربية . ثم شرف الله هذا الصحب الكريم بما ألقى على كواهلهم من العمل فى تمكين الدعوة على أرضها ، ثم الزيادة عليها حتى تعم الإنسانية كلها :

الدولة الإسلامية عقب وفاة النبى ﷺ

تعرضت الدولة الإسلامية عقب وفاة الرسول ﷺ لاختبارين والتمكين لما كان على أبنائها أن يجتازوهما حتى يتفرغوا للدعوة الإسلامية ، عظيمين فى الأرض الاختبار الأول إختيار الخليفة والاختبار الثانى فتنة الردة :

أولا اختيار الخليفة :

لقد كان لرسول الله — ﷺ — وظيفتان يؤديهما لأمته :

الأولى : التبليغ عن الله بحكم الرسالة التى اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله سبحانه : الثانية : كونه إماماً للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر، وإليه القضاء فى مشكلاتهم بحسب مايوحى إليه من الشريعة ، ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام :

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه الصلاة والسلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها والقيام بتبليغها للناس على تعاقب الأجيال والأعوام :

والوظيفة الثانية : تنصيب خليفة للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم ، وتقضى على يديه مشكلاتهم ، وبسلطته تنفذ أحكامهم ، وهذا مانستعرضه الآن فنقول :

من قواعد الاسلام أن يكون له ولأهله ولى أمر يسوسهم به لدينهم ودنياهم وهذا ماتم عقب وفاة الرسول — عليه الصلاة والسلام — إذ لم يجد المسلمون بدأ من إقامة من يخلف الرسول — عليه الصلاة والسلام فى خلافة المسلمين ، ولم يوجد بين هذه الأمة شىء تشعبت فيه الآراء . واختلفت فيه الكلمة بمقدار ما كان منها فى الخلافة ، ومدار البحث كان فى أمرين :

الأول : البيت الذى يكون منه الخليفة .

الثانى : الشكل الذى به ينتخب الخليفة .

أما عن الأمر الأول فمن المقطوع به أن القرآن الكريم لم يشر أدنى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين، وأما الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقد روى عنه أنه قال « الأئمة من قريش »، كما أثر عنه أنه قال « اسمعوا وأطيعوا وان تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ».

وقد كانت جماعة المسلمين فى عهد الرسول — عليه الصلاة والسلام وحتى لحق بربه إما مهاجرون وإما أنصار، وإما عامة الناس الذين لحقوا بهم فى هذا الدين بعد ذلك. أما الأنصار فإن الرسول — عليه الصلاة والسلام — يقول فيهم فى واقعة حال فى يوم حنين بعد إحراز النصر، ولما أعطى رسول الله — صلى الله عليه وسلم. كل ماغنم لمن أسلم حديثاً من أهل مكة وحرم الأنصار يقول. « ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

ثم يستوصى بهم خيراً فيقول « استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم عيبتى التى آويت إليها »، وهذه الوصية بلا جدال إنما هى للمهاجرين بأن يستوصوا بالأنصار خيراً.

أما قريش فقد ذكرت أنه عليه الصلاة والسلام قال: الأئمة من قريش وما ينبغى أن تكون الامامة إلا فى السابقين منهم إلى الايمان دون عامتهم وفى المهاجرين فقط كيف ذلك وقد أثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « ليس منا من دعا إلى عصبية » أفليس التنصيص على أن يكون الأئمة من قريش إثارة لعصبية وحمية جاهلية؟ نعم فذلك اعتراض سائغ ومن أجل هذا يعمم الرسول — عليه الصلاة والسلام — دائرة هذه الولاية حتى يجعلها من حق العبد ليس العبد فى اللون ولكن العبد فى الشخصية وهو المملوك الرقيق فيقول اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة

وإذا فالإمامة فى قريش من بعده عليه الصلاة والسلام، فهم أقوى المؤمنين على حمل الأمانة وأدائها للناس عامة ، لكن لما كانت الأيام — كما قدرها الله — دولا بين الناس وقد تضعف قريش عن الوفاء بالتزامات هذه الأمانة وجمع الناس عليها دينا ودنيا ، ولهذا كله وتحوطا لما قد تأتى به الأيام قال عليه الصلاة والسلام : اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة .

وكأنما كان عمر — رضى الله عنه — يقرأ من بطن المغيب المقبل الذى سيموج بالفتن على عهد من سيخلفه حين قال رضى الله عنه وهو يجود بآخر أيامه : لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت إليه ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لعهدت إليه .

وبهذا الفقه الذى أخذه عمر عن رسول الله — ﷺ سوى بين القرشى الحر وغير القرشى العبد .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو هل أثر عن رسول الله — ﷺ — ما يفهم منه صراحة أو ضمنا أن ولاية الأمر هذه أو امامة المسلمين حق لأهل بيت يكون محيطه أضيق من محيط القبيل كبنى هاشم مثلا بالقياس إلى قريش وخلصائها المهاجرين ؟ هذا ما سنجيب عليه فى السطور التالية :

لما مرض الرسول — عليه الصلاة والسلام — مرضه الذى مات فيه قال لجلسائه ايتونى أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا فقال عمر : ان رسول الله قد غلب عليه الوجع وعندنا كتاب الله هو حسبنا .

قال الإمام النووى فيما قال : وقد أختلف العلماء فى الذى .

هم النبى ﷺ — به ، فقيل أراد أن ينص على الخلافة فى إنسان

معين لئلا يقع نزاع وفتن — وبناء على هذا الحديث يتبين لنا أن الامامة تشمل قريشا كلها دون تعيين بيت أو بطن أو شعب بها — ولذلك اختلفت الآراء حول التخصيص وعدمه ، فرأى يذهب إلى تخصيصها بالقرابة من رسول الله — ﷺ وكان أقرب الناس إليه من أعمامه وقت موته العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه على وعقيل ابنا أبى طالب، ويمتاز على من بينهم بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وبتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له ان كان هناك إرث .

وهذا الرأى كان لعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — ومن شايعه :

ورأى يذهب إلى عدم التخصيص وهو رأى جماعة الأنصار ، فانهم يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التى قاموا بها ، فإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير ،وهذا ما اقترحه الحباب بن المنذر وهو من الأنصار — عندما قال « منا أمير ومنكم أمير » .

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأى الجمهور ، ولما رواه أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — فى خطبته بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله إأسلمنا قبلكم وتدمنا فى القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفيء وأنصارنا على العدو آويتم فجزاكم الله خيراً ، ونحن الأمراء وأنتم الوزراء ان العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به .

فقد بين أبو بكر — رضى الله عنه — طرفا من علة التخصيص بقوله :

« إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش » .

ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون بأن السر فى تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من القوة والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد ، فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما ، وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى القوة التى بها يكون اجتماع الكلمة ، وكانت قوة قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية بيضة الإسلام ، والدفاع عنها ، وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش من توجد لديهم تلك القوة المجتمعة .

كيف استخلف أبو بكر

بعد أن بينا أن القرآن الكريم لم يرد فيه أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله — ﷺ — اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم »(١) .

وكذلك لم يرد فى السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا ببعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ، ولو لم يكن الأمر كذلك لهدت

---

(١) الشورى : ٣٨

قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة وغيرها ، ولننظر كيف تم اختيار الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

إن الأيام الثلاثة التي قضاها رسول الله — ﷺ — مريضاً في حجرة عائشة تعتبر تجميعا لكل مواضي أبي بكر في الإسلام والصحبة فإنه عليه الصلاة والسلام لما نادى عائشة ثم قال لها : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فاجابته عائشة يا رسول الله : إن أبا بكر رجل أسيف (ضعيف) وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر ، ورد عليها الرسول بمثل مقاله وراجعته بمثل رأيها ، ولما كانت حفصة بنت عمر تسمع لعائشة ولا تنكر عليها قال عليه الصلاة والسلام لهن : إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وأخذ أبو بكر الأمر بقوة الصحبة فصلى بالناس سبعة عشر فرضا قضى رسول الله — ﷺ — بعدها ، وكان على جماعة المهاجرين والأنصار أن يجهزوا رسولهم الكريم للدفن في حجرة عائشة حيث قضى ، كما أخبر عليه الصلاة والسلام بذلك قبل وفاته حيث قال : يدفن الأنبياء حيث يموتون » .

بهذا انشغل الهاشميون وبخاصة علي والعباس ، وبهذا أيضاً شغل المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر لولا أن كبار الأنصار أوسهم وخزرجهم اجتمعوا في سقيفة — ظلة أو عريش — تسمى سقيفة بني ساعدة يريدون انتخاب خليفة لرسول الله — ﷺ — منهم ، وكان نظرهم موجها إلى اختيار سعد بن عبادة أمير الأنصار في المدينة فإن سعدا خطب فيهم مبينا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله — ﷺ — وأنه لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الأمر أحد فأجابوه : أصبت

ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم : فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا لهم ؟ فقال له آخر : نقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها : هذا أول الوهن .

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها ، ومثل هذا اللقاء ليس له إلا أقوى المهاجرين دينا وقوة ومضاء عزيمة ، وكل ذلك موفور فى عمر — رضى الله عنه — وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ليقوله فى هذا الموقف ، فقال له أبو بكر : على رسلك ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : نحن المهاجرون أول الناس اسلاما ، وأكثر الناس ولادة فى العرب . . . . إلى أن قال : ان العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم من الخزرج فقال : يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم ؛ ولن يجترء مجترء على أخلاقكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة ، وأولوا العدد والمنعة والتجربة ، وذو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ماتصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير .

لكن عمر — رضى الله عنه — لا يريد إلا جو الوحدة إله واحد وأمير واحد وأهل الحل والعقد من حوله خلصاء ومشيرون ومن هنا رد على الحباب قائلا : هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد واحد انه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم والعرب لا تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم ، ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته .

وإذا كان الحباب قد بادل أبا بكر مبادلة هادئة ، فلقد بادل عمر مبادلة عمرية شديدة إذ قال : يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فان أبوا عليكم ما سألتموهم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان من لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، وأنا أبو شبل فى عرينه الأسد ، والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة(١) ،

وهذا الموقف حججه المتدانعه والمتكافئة أصبح فى حاجة إلى من يغرى الأنصار بما آثروا من النصرة والعون ، وهذا ما فعله أبو عبيدة حينما قال : يا معشر الأنصار لقد كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من غير وبدل .

وكان لحديث أبى عبيدة أثره حيث قام بشير بن سعد فقال : ألا ان محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .

فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فانك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر أبسط يدك لنبايعك .

فد عمر يده إليه فبايعه ، ثم أبو عبيدة ، ثم بشير بن سعد ، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعوا إليه قريش وما تطلب الخروج

---

(١) الخلفاء الراشدون للشيخ عبد الوهاب النجارى ص ٣١ ، ٣٢

من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض — وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء — والله لئن وليتها الخزوج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً ، قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقاموا إليه فبايعوه ، فانكسر على سعد وعلى الخزوج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، ولم يتخلف عن هذه البيعة من الأنصار إلا سعد بن عبادة ومن المهاجرين على بن أبى طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفه وكانوا مشغولين فى جهاز رسول الله — ﷺ .

رعى الله جماعة المهاجرين والأنصار فى لقائهم من أجل دين الله بعد موت رسول الله وتلك أول مكرمات المسلمين بعد موت نبيهم أن يدفنوا من مات وأن يختاروا إماما لدين الله الذى لا يموت .

وبعد ذلك انصرف جمع السقيفة إلى رسولهم الكريم ليواروه التراب وفى نفس المسجد بايع المسلمون من أهل المدينة أبا بكر البيعة العامة ليكون خليفة لرسول الله ﷺ — ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا سعد ابن عبادة من الأنصار وأمره معروف فى حوار السقيفة ، وإلا على بن أبى طالب ومن معه من بنى هاشم وطلحة والزبير لكنهم وقد انصرفوا مغاضبين من البيعة العامة قد بايعوا أبا بكر فيما بعد على خلاف فى الوقت تقدماً أو تأخراً .

« خطبة أبى بكر بعد البيعة »

بعد أن تمت بيعة أبى بكر — رضى الله عنه — قام فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف

عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدعن أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله(١) .

وفى هذه الخطبة الجامعة تتبين لنا الصورة المجملة للنهج الذى سيتبعه الخليفة الأول فى خلافته حيث أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته ، وحق لهم وهو تقويمه إذا بعد عن الحق . وفى هذا ضمان لحقهم فى القول وأعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم ، ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه ، وحثهم على الجهاد الذى لابد منه ، وأخبرهم أنه خليفة للمسلمين ما دام ينفذ الشريعة ، فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم .

ثانيا : فتنة الردة

كان كثير من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بالإسلام ولم تزك نفوسهم الزكاة المطلوبة ، وقد بين القرآن الكريم ذلك فى قول الله سبحانه « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »(٢) .

فهذه كانت حالهم خضوع فى الظاهر والقلوب لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول عليه الصلاة والسلام — فرصة يتخلون فيها عن الفرائض الإسلامية خصوصاً منها ما كان فى المال كالزكاة ، كما جنح فريق آخر إلى اتباع من ادعوا النبوة مثل مسيلمة الكذاب وغيره ممن تحولوا عن الإسلام ، وتبدلوا الكفر بالإيمان ، وقال الله تعالى فى حقهم « الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم »(٣) .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية　　　(٢) الحجرات:١٤
(٣) التوبة : ٩٧

وإنما سلك الأعراب هذا الأدب السيء لأنهم حسبوا أن الإسلام الذى اعتنقوه حديثاً يجرى على اللسان قولاً، ولا يحرك القلب بالعمل الكبير . وقد بينت آية سورة الحجرات السالفة الذكر بعض أوصاف هؤلاء الأعراب ، والتى منها أنهم أسلموا بألسنتهم دون أن تؤمن قلوبهم وعلى ضوء هذا التصوير القرآنى نستطيع أن نحصر أسباب الردة فيما يأتى :

١ — مخافة الأعراب من حكم أبى بكر بعد رسول الله — ﷺ الذى كان يوحى إليه .

٢ — الإسلام حتى ذلك الوقت لم يكن قد أذاب التعدد القبلى ، وما زال العرب حديثى عهد بعصر الجاهلية ومن أجل هذا فقد خشى العرب أن يسلك أبو بكر فيهم مسلك الأكاسرة والقياصرة المعاصرين لهم .

٣ — طول العهد بسيادة قريش على العرب فى الجاهلية ثم امتدت سيادتها فى الإسلام مما أثار حسد العرب على القرشيين ، يعبر عن ذلك الحسد موقف مسيلمة فى اليمامة عندما أغرى قومه بقريش حتى قال طلحة النمرى : أشهد أنك لكاذب وأن محمداً لصادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

٤ — ولعل للمواجهات الحربية التى وقعت بين الرسول — عليه الصلاة والسلام — والروم والكتب التى وجهها إلى كل ذى شأن فى المنطقة كلها لعل لذلك أثره فى توجيه العرب للردة ، فقد زعموا أن للفرس والروم كرة على المنطقة قصاصاً مما كان فى عهد النبى — ﷺ — فخير لهم إذا أن لا يظلو على الإسلام حتى لا يتحملوا أوزار المشاركة ضد هذه المواجهات المتوقعة بل خير لهم أن يرتدوا حتى يشاركوا الفرس والروم فى مغانم هذا العدوان المزعوم .

ظهرت كل ألوان الكفر فى الجزيرة العربية كلها ما عدا المدينة ومكة والطائف ولهذا كان على الخليفة الأول أن يتحلى بصدق العزيمة المقرونة

[illegible] العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شوريا ، فإذا إتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شىء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقا هكذا كان أبو بكر — رضى الله عنه .

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثير ، وضدها القسوة [illegible] الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعدائه ، وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر .

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر عند ساسة الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان متردداً فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك .

ويتجلى صدق العزيمة عند أبى بكر — رضى الله عنه — فى إعداده للجيوش للقضاء على فتنة الردة فى مهدها على النحو التالى :

اللواء الأول : بقيادة خالد بن الوليد ، وكان عليه أن يسير لقتال طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة قريبا من المدينة ، فإذا فرغ منها توجه لقتال مالك بن نويرة كبير بنى تميم فى البطاح .

اللواء الثانى : بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، وعليه أن يقاتل مسيلمة فى اليمامة .

اللواء الثالث: بقيادة شرحبيل بن حسنة ، وعليه أن ينضم إلى عكرمة فإذا فرغا من مسيلمة سار شرحبيل إلى قضاعة مدداً لعمرو بن العاص .

اللواء الرابع : بقيادة المهاجر بن أبى أمية ، وعليه أن يقاتل جنود الأسود العنسى وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن مكشوح فى اليمن ، فاذا فرغ منهم قصد [illegible] وكندة ليقاتل الأ[illegible] قيس .

اللواء الخامس : بقيادة سويد بن مقرن ، وعليه أن يقاتل المرتدين في تهامة اليمن .

اللواء السادس : بقيادة العلاء بن الحضرمي لقتال الحطم بن ضبيعة في البحرين .

اللواء السابع : بقيادة حذيفة بن محصن لقتال ذي التاج لقيط بن مالك المتنبي في عمان .

اللواء الثامن : بقيادة عرفجة بن هرثمة لقتال المرتدين في مهرة .

اللواء التاسع : بقيادة عمرو بن العاص لقتال قضاعة .

اللواء العاشر : بقيادة معن بن حاجز السلمي لقتال بني سليم وحلفائهم من هوازن .

اللواء الحادي عشر : بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، ولم يتجه ذلك اللواء لقتال المرتدين وإنما كان قصده إلى الشام ليرهب دولة الروم إن حدثتهم أنفسهم لمعاونة المرتدين .

وقد خرجت هذه الألوية الأحد عشر من المدينة في وقت واحد كل إلى الجهة التي حددت له وكلها لا تجاوز الخمسين ألفاً من الجنود ، ولكن انتشارها في الجزيرة العربية بهذا التخطيط العجيب كان كافياً أولا : أن يشغل كل جهة مرتدة عن معاونة أو إمداد جهة أخرى .

وثانياً : كان هذا الحصار الشامل لطاوح المرتدين كافياً لأن يلقي الرعب في قلوب الأعداء ومن أجل هذا وعملا بتوجيه القرآن الكريم والسنة النبوية كان لابد أن يوصي أبو بكر هؤلاء المجاهدين بما يحصر عملهم في أضيق دائرة ، وهي أن الحرب هذه ليست لذات الحرب ، وإنما هي من أجل استئصال رواسب الحمية من نفوس هؤلاء الذين ارتدوا عن دين الله — سبحانه — ، وأن يعودوا إلى شرف الأخوة في الدين بعد أن

ينزعوا من تبعية الشيطان ، وأن الإسلام إنما دعا الناس جميعاً إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، وحق من أسلم ثم ارتد فى تقديم الحكمة له بين يدى الحرب أشد وآكد .

وهذا ما فعله الصديق — رضى الله عنه — عندما كتب إلى قواد الجيوش عهداً صورته واحدة هذا نصها « هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره سره وعلانيته ، وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم — لا يؤجلهم — ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجابهم إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه فيما استسر به ، ومن لم يجب داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ، ويعرف من هم لئلا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول »(١) .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية .

هذا هو منهج أبى بكر — رضى الله عنه — رسمه للمجاهدين فى أنفسهم وفى آدائهم لعملهم وقيامهم بمهمتهم ، وحسن تنفيذ ماعهد إليهم .

وبهذا المنهج النابع من تعاليم الإسلام دارت المعارك فى كل جنبات الجزيرة العربية التى ارتدت عن الإسلام ، وفى مدة عام واحد انتهت وجفة الردة وعادت بعد ذلك أرض الجزيرة إلى الإسلام تلك العودة التى كان لها أثرها فى مصير المسلمين والإسلام ينشرون دعوته ، ويفيضون من نوره على العالمين .

وعلى ضوء ماسبق نستطيع أن نستخلص أهم النتائج التى استفادها المسلمون من القضاء على فتنة الردة :

١ — كانت فتنة الردة امتحاناً من الله — سبحانه — للمسلمين فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق هل تستمسك هذه الأمة بأصول دينها ، وتضرب بيد من حديد على كل من يحاول تقويض شىء من هذه الأصول ، أم تتخاذل وتضعف ؟ وكان ماوجدناه من العزيمة الصادقة ورباطة الجأش اللذان كانا سبباً فى نزول نصر الله على المؤمنين ، وصدق الله إذ يقول : «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »(١) لم يقل الحق سبحانه والذين آمنوا معهم ولكن أطلق القول حتى صدق على من يخلفونهم ، ويثبتوا على مثل ما مات عليه رسلهم وتلك كانت أولى النتائج أو بمعنى أدق النتيجة الحاسمة الموجهة لغيرها من النتائج .

٢ — آمن المسلمون بأن أبا بكر لما اتبع أوامر الله — سبحانه — وهدى رسول الله — ﷺ — أيده الله ونصره .

٣ — ثبتت هذه الانتصارات الإسلام على أرضه الأولى ، ومنها استطاع أن يزحف داعياً لنفسه فى غير أرضه فى دولتى الفرس والروم .

---

(١) غافر : ٥١

٤ — بينت هذه الفتنة المؤمن القوى والمؤمن الضعيف ، فمن ثبت على الإيمان وأقام شعائر الدين كاملة بعد وفاة رسول الله — ﷺ — فهو المؤمن القوى أما من ارتد وتخاذل ولم يرجعه إلى الدين إلا شدة بأس المسلمين فهو المؤمن الضعيف . ولذلك رأى سيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — ألا يشرك هؤلاء المرتدين بعد التوبة فى الفتح الإسلامى لأنه لا يراهم صالحين لمثل ذلك العمل العظيم فلما راجعه عمر — رضى الله عنه — فى ذلك غير مرة استعان بقليل من كل قبيل ولم يجعل لهم نصيباً فى القيادة بل جعلهم جنوداً فقط ، فلما صدقت طلائعهم فى مسيرة الفتح أتبعهم عمر — رضى الله عنه — بكل من يستطيع الجهاد .

المبحث الثانى

« الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين »

بعد أن وفق الله المسلمين لاختيار الخليفة الأول لرسول الله ـ ﷺ ـ وبعد أن أعانهم على القضاء على فتنة الردة أصبحت أرض الدعوة صالحة وثابتة ينطلق منها الدعاة إلى الله حاملين لواء الدعوة معززين بالوسائل التى بينها الرسول — عليه الصلاة والسلام — فى حياته ، وحث المسلمين على التمسك بها بعد مماته ، والمراد بالوسائل : عمليات الاتصال الفردى والجماعى التى كانت تتم بين المسلمين وبين غيرهم من بنى البشر من أجل تبليغ الإسلام ونشره ، وقد اتخذت هذه العمليات صوراً عديدة لأن المسلمين استمدوا الإخلاص للدعوة من رسولهم الكريم — عليه الصلاة والسلام — فانطلقوا بها إلى كل مكان استطاعوا الوصول إليه .

وتنحصر وسائل نشر الدعوة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين فيما يأتى :

١ — القرآن الكريم . ٢ — السنة النبوية .

٣ — الخطب النبوية . ٤ — الفتوحات الإسلامية .

وسنبسط القول فى كل واحدة من هذه الوسائل على حدة :

أولا — القرآن الكريم :

انقطع الوحى بوفاة النبي — ﷺ — ولكن بقى أعظم ما جاء به الوحى وهو القرآن الكريم الذى نزل على قلب النبي — عليه الصلاة والسلام — وأقرأه قراءته ، وعلمه ترتيله — سبحانه — وقال له

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »(١).

وإذا كان عليه الصلاة والسلام قد مضى إلى ربه بعد أن أدى رسالته فقد أكمل بيانها وروت أخباره وأحاديثه أحكامها ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى .

ولفظ القرآن فى اللغة : مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبى — ﷺ — من باب إطلاق المصدر على مفعوله وفى الاصطلاح هو الكلام المنزل على النبى(٢) — ﷺ — المكتوب فى المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته(٣).

وهذا التعريف جمع بين الإعجاز والتنزيل على النبى — عليه الصلاة والسلام — والكتابة فى المصاحف ، والنقل بالتواتر . والتعبد بالتلاوة وهى الخصائص العظمى التى امتاز بها القرآن الكريم فالمنزل على محمد — عليه الصلاة والسلام — خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل وغيرهما ، والمعجز بسورة منه خرج به الأحاديث القدسية فإن ألفاظها منزلة من عند الله — تعالى — على قول الجمهور ولكنها ليست معجزة والمتعبد بتلاوته خرج به منسوخ التلاوة فإنه بعد النسخ لا يتعبد بتلاوته .

وبهذه القيود الثلاثة خرج من القرآن الكريم كل ماعداه ، واندرج

---

(١) القيامة : ١٦ — ١٩

(٢) مناهل العرفان ج ١ ص ٧ ، والبيان ص ٢٣

(٣) مناهل العرفان ج ١ ص ١٢

فيه كل ما هو منه فيكون القيدان الباقيان وهما الكتابة في المصحف . والنقل على سبيل التواتر لبيان الواقع لا للاحتراز .

وقد اتجه الصحابة أول ما اتجهوا إلى القرآن الكريم الذى هو سجل الدعوة وقد كان محفوظا فى الصدور ، ومكتوبا بأمر النبي — ﷺ — على عسب ولخاف وأكتاف وأضلاع وأقتاب ورقاع وصحف وألواح(١).

كما كانت هناك عوامل كثيرة على عهد النبي — عليه الصلاة والسلام — تدعو إلى تلاوة القرآن وحفظه وتعليمه للغير ، وتحمل على النشاط فى ذلك والتسابق فيه . وكانت هذه العوامل مختلفة ومتنوعة فمنها ما يرجع إلى ظروف العرب أنفسهم ، ومنها ما يرجع إلى عظمة القرآن ذاته عندهم ، ومنها ما يرجع إلى الترغيب فى تعلمه وتعليمه بمضاعفة أجر من يفعل ذلك ورفع منزلته فى الدنيا والاخرة .

العوامل العامة :

١ — الجزيرة العربية تتمتع بسماء صافية ، وشمس مشرقة ، وصحروات واسعة يندفع فيها ضيق الصدر ، وتزيل انقباض النفس ، فكان لهذه البيئة أثرها الكبير فى نشاط أذهان العرب ، وصفاء قرائحهم ، وحدة خواطرهم وبهذه الصفات يكون تهيؤهم للحفظ أقوى واستعدادهم له أكمل .

٢ — ان العرب كانوا فى عصر نزول القرآن بعيدين عن الترف قانعين بضرورات الحياة فلم يكن عندهم من مهام الدنيا ما يملؤ وقتهم ، ويستنفد جهدهم ويرهق أفكارهم ولا ريب انه كلما كان الانسان أبعد عن الشواغل كان أقدر على الحفظ ، وكان ما يحفظه أقرب الى الثبات والاستقرار .

---

(١) البيان فى مباحث من علوم القرآن ص ٢٣

وهذان العاملان لا تعلق لها بالقرآن بل يرجعان إلى أحوال العرب أنفسهم .

العوامل الخاصة بالقرآن الكريم :

وهناك عوامل أخرى هى ذات الشأن الكبير فى هذا المقام لتعلقها واتصالها بالقرآن الكريم نفسه ومنها : —

١ — ان القرآن هو المصدر الأول للتشريع ، وقد كان العرب أميين لا يكتبون فلم يكن لديهم وسيلة لمعرفة معانيه التى يستطيعون فهمها دون الرجوع الى النبى — ﷺ — سوى حفظه .

٢ — ما ورد من أن القرآن الكريم يشفع يوم القيامة لمن كان من قرائه فى الدنيا فقد قال ﷺ : « اقرؤا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » (١) .

وقال « يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » (٢) .

٣ — كان النبى — ﷺ — يفاضل بين أصحابه بالقرآن فيؤثر المتفوق فيه بالمنازل الكبيرة والمناصب الرفيعة فقد صح عنه أنه قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله » ، وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : بعث رسول الله — ﷺ — بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال ما

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم

معك يا فلان فقال معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأنت أميرهم»(١) .

٤ — توفر فى القرآن من الخصائص البلاغية والمزايا البيانية ما جاوز مقدورة العرب ، وبلغ به الى مرتبة الاعجاز ، فكان فى قراءتهم له متعة نفسية فانهم عرب خلص يستطيعون ان يدركوا هـــذه المزايا ، ويمتعوا بها أرواحهم ، وفى هذا وحده ما يحبب اليهم الإكثار من قرائته وذلك سبيل الى حفظه .

٥ — ما فى تلاوته من الأجر العظيم والثواب الجزيل قال الله تعالى « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور»(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٣) .

وقال ﷺ «لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن وهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار(٤) والأحاديث فى هذا الباب كثيرة » .

فهل يعقل ان أصحاب النبى — ﷺ — الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك يتوانون لحظة عن قراءة القرآن ؟ ثم الا تكون تلك التلاوة سبيلا الى ان يحرزوه ويحرزوه ؟ .

٦ — ما روى من الوعيد الشديد لمن حفظ سورة من القرآن أو آية ثم نسيها .

---

(١) تفسير ابن كثير فى أول تفسير سورة البقرة ، ونسبه الى الترمذى والنسائى وابن ماجة

(٢) سورة فاطر : ٢٩، ٣٠

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه البخارى

٧ — تشريع قراءة القرآن في الصلاة فرضاً كانت أو نفلا سراً أو جهراً ليلية أم نهارية ومثل الصلاة فى ذلك خطبة الجمعة ، وتلك وسيلة نعالة جعلت الصحابة يقرءونه ويسمعونه ثم جعلتهم عن هذا الطريق يحفظونه ويستظهرونه لا فرق بين رجل وامرأة وصغير وكبير وغنى وفقير كل كل بقدر ما سمح له استعداده .

٨ — القداسة التى امتاز بها كتاب الله عن كل ما سواه حيث اجتمع فيه من المزايا مالم تتوفر فى غيره كنسبته إلى الله — تعالى — وكحرمة قراءته على الجنب والحائض والنفساء وكحرمة مس المصحف وحمله على هؤلاء جميعاً إلى غير ذلك ولا شك أن هذه القداسة تلفت الأنظار إليه ، وتخلع همم المؤمنين به عليه فيحيطون به علماً ويخضعون لتعاليمه عملا ، وذلك ما حدا بالمسلمين فى كل عصر ومصر أن يعنوا بحفظ كتاب الله حتى عصرنا الذى نعيش فيه فكيف بعصر الصحابة وهو عصر العلم والنور والتقوى والهداية ونشر الدعوة(١) ، ولا شك أن كثرة هذه البواعث التى تحمل على حفظ القرآن تقتضى أن حفاظه كانوا فى عهده صلى الله عليه وسلم كثرة كبيرة .

جمع القرآن فى عهد أبى بكر — رضى الله عنه :

واجهت الخليفة الأول أبا بكر الصديق أثناء خلافته أحداث جسام ومشاكل صعاب منها معركة اليمامة بين المسلمين وأهـل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب ، وقد استشهد فيها عدد كبير من حفاظ القرآن ينتهى عدهم إلى السبعين ، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة ومن أجلهم سالم مولى أبى حذيفة فخشى عمر — رضى الله عنه — أن يتكرر ذلك فى المستقبل فندخل

---

(١) البيان فى مباحث من علوم القرآن ص ١٤٦ وما بعدها .
ومناهل العرفان ج ١ ص ٣٠٦ وما بعدها باختصار شديد .

على أبي بكر وأخبره الخبر ، واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء لا سيما وأن القطع الكثيرة المتنوعة التي كتب فيها القرآن على عهد النبي — عليه الصلاة والسلام — لا يستبعد أن يفقد منها شيء بمرور الزمن ومن الجائز أن يكون ما كتب فيما يفقد منها لا يحفظه إلا القراء الذين استشهدوا وبذلك يضيع شيء من القرآن ، فتردد أبو بكر أول الأمر مخافة أن يجره التجديد إلى التبديل ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلى له وجه المصلحة وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ماهو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة في حفظ القرآن الكريم ، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف ، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجية .

قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب فهم السنن ما نصه « كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء (١) .

وهذا هو الإمام البخاري يوضح لنا كيف جمع القرآن فيروي في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة — أي عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر — رضي الله عنه — ان عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر — أي اشتد — يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر : كيف نفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك

(١) مناهل العرفان ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لوكلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله — ﷺ ؟ قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » حتى خاتمة براءة فكانت — الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت — عمر. والذى يستفاد من هذا الحديث عدة أمور : —

١ — الباعث على جمع القرآن فى عهد أبى بكر هو مخافة أن يضيع منه شىء بموت الحفاظ إذا أشتد بهم القتل فى المواقع المتتابعة وقد كان هذا متوقعا فى ذلك الوقت الذى أصبح فيه معظم سكان الجزيرة العربية بين مرتدين عن الإسلام ومانعين للزكاة ، وقد عزم الصديق — رضى الله عنه — على محاربتهم جميعا حتى يعودوا إلى رشدهم .

٢ — الصفات التى رشحت زيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة العظمى هى كما يؤخذ من كلام أبى بكر ما يلى : —

(أ) الشباب والقوة حتى لا تفتر عزيمته أثناء العمل ، فإن مهمته تحتاج إلى صبر وجلد .

(ب) العقل والفطنة حتى لا يقع فى عمله نقص أو خلل ، ويشهد بوفرة عقله تردده وتوقفه أول الأمر ومناقشته لأبى بكر حتى راجعه الصديق واقنعه بوجه الصواب .

(ج) الأمانة والتقوى حتى لا يقع فى عمله أدنى ريبة ويشهد لذلك قوله فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى من جمع القرآن .

(د) الخبرة والممارسة حتى يجيء عمله كاملا متقنا ، ويشهد لذلك قوله : « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال » هذا فضلا عن أنه كان من حفاظ القرآن ، ومن كتاب الوحى للرسول عليه الصلاة والسلام وشهد العرضة الأخيرة للقرآن فى ختام حياته — ﷺ كما كان معروفا بخصوبة العقل وشدة الورع ، واستقامة الدين .

والواقع أن المهمة التى انتدب لها سيدنا زيد جديرة بأن يختار لها من تتوفر فيه هذه الصفات كلها بأكمل معانيها ، وقد رأى الصديق — رضى الله عنه — أن زيد تكاملت فيه هذه الصفات فعهد إليه بهذه المهمة العظيمة الشأن الجليلة الخطر .

٣ — تحرج أبو بكر — رضى الله عنه — من أول الأمر من جمع القرآن على الوجه الذى أشار به عمر لأنه من الأمور المحدثة التى لم تكن فى عهد النبى — ﷺ — ثم تبين له بعد المناقشة التى دارت بينه وبين عمر أنه مما تقضى به قواعد الشرع العامة فهو خير كما قال عمر رضى الله عنه وقد قال الله — سبحانه — « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »(١) .

٤ — الذى يظهر من قول أبى بكر لعمر كيف نفعل شيئا لم يفعله الرسول — عليه الصلاة والسلام — أن سبب تحرجه أولا أنه رأى أن من يعمل الذى لم يعمله الرسول — عليه الصلاة والسلام — يكون كأنه يرى فى نفسه أنه أشد حرصا على الدين من الرسول وأكثر احتياطا منه له ولا يجرؤ على هذا من يوقر الرسول ويعظمه ، ثم انكشف له بعد البحث والنظر أن ما تحرج منه هو فى الواقع من أجل الأعمال التى ترضى الله ورسوله ... وهذا المعنى هو الذى ذكره ابن بطال فى هذا المقام جاء فى فتح البارى ما نصه « إنما نفر أبو بكر أولا ثم زيد

---

(١) الحج : ٧٧ .

بن ثابت ثانيا لأنهما لم يجدا رسول الله — ﷺ — فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال فى المستقبل إذا لم يجمعا القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعا إليه » (١) .

وبذلك يكون أبو بكر هو أول من جمع القرآن بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلم يسبقه إلى هذا العمل الجليل أحد من الصحابة ويؤيد ذلك ما أخرجه بن أبى داود فى المصاحف بإسناد حسن عن عبد خير قال : سمعت عليا يقول : أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبى بكر هو أول من جمع كتاب الله (٢) .

« فوائد جمع أبى بكر »

١ — البحث عن القطع المختلفة التى كتب فيها القرآن وجمعها قبل ضياع شىء منها أو تآكل حروفها .

٢ — تجديد كتابتها فى صحف مجتمعة صالحة للاحتفاظ بها دائما .

٣ — اتصال السند الكتابى بالأخذ من الصحف التى كتبت بين يدى النبى — صلى الله عليه وسلم — كاتصال السند المتواتر فى الرواية والتلقى عن الشيوخ فتكون كتابة أبى بكر بمثابة الطبقة الثانية من الشيوخ ، وكتابة عثمان بمثابة الطبقة الثالثة وهكذا مرات الإنتاج

---

(١) كتاب البيان فى مباحث من علوم القرآن ص١٧٠ ، ١٧١ ومناهل العرفان ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) فتح البارى .

من المصاحف العثمانية ، ولا يخفى ما فى ذلك من الاهتمام بشأن القرآن والعناية بضبطه .

٤ — امتازت هذه الصحف بأنها جمعت على أدق وجـــوه البحث والتحرى وأسلم أصول التثبت العلمى .

٥ — أنه اقتصر فى هذا الجمع على ما لم تنسخ تلاوته .

٦ — أن هذه الصحف ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها(١).

جمع القرآن على عهد عثمان

رضى الله عنه

اتسعت الفتوحات فى زمن سيدنا عثمان — رضى الله عنه — ودخل فى الإسلام كثير من الأقطار غير العربية ، ومضى على وفاة رسول الله — ﷺ — فترة من الزمان نبت فيها نشأ جـــديد تخفى عليه الكثير من الحقائق الدينية لا سيما الذين نشأوا فى بلاد العجم وكان كثير من الصحابة قد تفرقوا فيما فتحوا من البلاد ، وكان القرآن يتلى فى كل البلاد التى فتحت لأنه أعظم داع ، ولأنه لب الإسلام ولسان الدعوة يتلوه الناس ويتدارسونه وعلماء الصحابة كابن عباس وابن مسعود يعلمونهم أحكامه، وقد أختلف المسلمون فى قراءته ببعض لهجات عربية قد نسخها النبى — ﷺ — وأبقى لغة واحدة هى لغة قريش ، وكانت قراءته باللهجات العربية لتيسير قراءته ثم نسخت القراءة باللهجات ما عدا لغة قريش فكان من الناس من يقرأ ببعض هذه اللهجات غير عالم بنسخها ، فاضطرب بعض القراء وكان اختلاف ، فعمل سيدنا عثمان على حسمه .

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص٢٤٦ ، وكتاب البيان ص ١٨٥ .

ومن سبيل ذلك جمع الجماعة التى قامت بجمع القرآن فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما — وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وضم إليهم سعيد بن العاص ، وطلب إليهم أن يجمعوا القرآن مرة ثانية ، وأن يتبعوا الطريقة التى اتبعوها فى المرة الأولى وهى جمع الرقاع التى كتبت فى عهد الرسول — عليه الصلاة والسلام — والإشهاد على أنها كتبت فى عهده عليه الصلاة والسلام ... وانتهت الجماعة من كتابة المصحف الجديد فى تكوينه الحالى وكان المصحف الأول محفوظا عند أم المؤمنين حفصة فقابلت الجماعة مع سيدنا عثمان بينه وبين المصحف الذى كتب فكان — التوفيق كاملا ، وبعد هذا الاستيثاق أقر بأن ينسخ من هذا المصحف الإمام نسخ على قدر عدد الأقاليم وأبقى الأصل فى المدينة .

وأمر رضى الله عنه بحرق المصحف الذى كان عند أم المؤمنين حفصة ، وكان بعد وفاتها رضى الله عنها ، ولكن فى زمن سيدنا عثمان ، والسبب فى ذلك أنه خشى بعد وفاتها أن يقع هذا المصحف تحت يد من يدعى الإسلام من المشركين أو اليهود أو النصارى فيجرى فيه تصحيفا أو تحريفا ويدعى أنه المصحف فيكون الاضطراب ولا يمكن أن تجرى الأيدى بالتصحيف أو التحريف فى غيره من نسخ المصحف الإمام لأنه كان محفوظا بدار الإمارة فى كل بلد عربى إسلامى ، وقد حفظته كل الأمصار(١) .

وقد امتازت المصاحف التى كتبها سيدنا عثمان بعدة مزايا وهى :

١ — الاقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا .

---

(١) البيان فى مباحث من علوم القرآن ص ١٣٤ وكتاب الدعوة إلى الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة ص ٦١ ، ٦٢ .

٢ — إهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقر فى العرضة الأخيرة .

٣ — ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبى بكر — رضى الله عنه — فقد كانت مرتبة الآيات دون السور .

٤ — كتابتها بطريقة كانت تجمع وجـــوه القراءات المختلفة ، والأحرف التى نزل عليها القرآن ، وذلك بعدم إعجامها وشكلها ، وبتوزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

٥ — تجريدها من كل ما ليس قرآنا كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنى ، أو بيانا لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك(١).

وبهذا يكون سيدنا عثمان قد ارضى بذلك العمل الجليل ربه ، وحافظ على القرآن وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم .

« القرآن الكريم هو المصدر الأول للدعوة إلى الله »

بعد أن بينت كيفية حرص الصحابة على حفظ القرآن فى الصدور وفى السطور أستطيع أن أقول ان القرآن الكريم هو المصدر الأول الذى تأخذ الدعوة من حناياه ومن آياته وتعاليمه ذلك أننا إذا حاولنا الرجوع إلى المصادر الصافية التى لم يعلق بها التغيير والتحريف فلانجد أصفى من القرآن مصدراً نتلمس فيه حقيقة الإسلام وخطوطه العامة من البداية إلى النهاية .

ومن هـذا المنطلق الربانى اتجـه الدعاة فى عصر الصحابة إلى الفرس والعراق ومصر ومعهم القراء يعلمونه للناس مقتدين فى ذلك برسول الله ﷺ — عندما أرسل دعاته إلى يثرب وأرسل معهم القراء يقرؤونهم القرآن .

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

وفى الاقاليم غير العربية كانت [illegible] احكامه وتحفظ اياته لنشر اللغة العربية [illegible] فيمكن تدوين [illegible] بها وقد صارت الامرة [illegible] والتدوين [illegible] لهم .

كما كان القرآن الكريم وسيلة فعالة للدعاية الدينية حيث كان يجب على كل مسلم أن يحفظ قدرا من القرآن يؤدى به فريضة الصلاة التى هى عماد الدين فلا دين من غير صلاة .

وفوق ذلك فانه سجل الاحكام الإسلامية ، وهو المرجع الأول لها فلا يمكن ان يستغنى الداعى إلى الله عن تعليمه وتحفيظه ، وقد عكف العلماء عليه يتدارسونه ويتعرفون مبادئه واحكامه ، ولم يكن غريبا ان نجد كثيرا من الفرس فى صدر الإسلام قد انصرفوا إلى فهم القرآن الكريم ، وكان كثيرون من تلاميذ الصحابة الذين لازموهم من الفرس وغيرهم من الذين دخلوا فى الاسلام فى عصر الصحابة ومن جاء بعدهم(١) .

« اثر القرآن الكريم فى حياة الإنسان » :

للحياة مجالان الأول : مجـــال الحياة الواقعة المحسوسة القائمة على الانشاء والإحداث الثانى : مجال الحياة الروحية القائمة عـــلى الايمان والإيلاف .

وقد رسم لنا القرآن الكريم حياة الانسان والانسانية من قبل المهد إلى ما بعد اللحد على الوجه التالى :

١ ـــ خاطب الله الانسان وهو فى عالم الاصلاب ، وذلك حينما أخرج بعض الذرية من صلب آدم نسلا على نحو ما يتوالدون كالذر ونصب لهم الادلة على ربوبيته وركب فيهم عقلا ثم استشهدهم على ذلك فشهدوا قال

(١) الدعوة الى الاسلام للشيخ محمد ابو زهره ص ٦٣ ، ٦٤ .

تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين(١) .

هذه مرحلة بداية الحياة وقبل ظهور الانسان على كامل صورته التى خلقه الله سبحانه — فسواه فعدله عليها .

٢ — تفضل الله على الانسان بعد ذلك بدرجة الخلافة ، ووهبها له وميزه بها عن جميع خلقه حتى عن الملائكة ، ثم من عليه بالعلم والمعرفة ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون(٢) .

٣ — من الله على الانسان بتعريفه بأصله الذى لو حاول جاهدا أن يعرفه ما اهتدى إلى ذلك فأرشده سبحانه إلى تطورات خلقه قال عز وجل « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج» (٣).

فى هذه الاية بين الله سبحانه مراتب خلق الانسان على النحو التالى :

المرتبة الأولى : الخلق من التراب ، وفى الخلق من التراب وجهان أحدهما إنا خلقنا أصلكم وهو آدم — عليه السلام — من تراب كما

---

(١) الأعراف : ١٧٢ (٢) البقرة : ٣٠
(٣) الحج : ٥

قال تعالى « كمثل آدم خلقه من تراب» الثانى من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية ، وغذاء الحيوان ينتهى إلى النبات قطعا للتسلسل ،والنبات إنما يتولد من الأرض والماء ، فصح قوله سبحانه « إنا خلقناكم من تراب » .

المرتبة الثانية : ثم من نطفة وحالها أبعد شىء عن حال التراب فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى « من ماء دافق » .

المرتبة الثالثة : ثم من علقة «أى قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة .

المرتبة الرابعة : ثم من مضغة أى قطعة لحم صغيرة وهى فى الأصل قدر ما يمضغ .

المرتبة الخامسة : ثم نخرجكم طفلا ، أى تولدوا فى حالة الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر اجرامكم وعظم اجسامكم .

المرتبة السادسة : ثم لتبلغوا أشدكم ، أى نمد أجلكم لتصلوا بهذا الانتقال إلى كما لكم من القوة والعقل .

المرتبة السابعة : ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، أى ومنكم من يتوفى عند بلوغ الاشد ، أو قبله ومنكم من يرد بالشيخوخة إلى آخر العمر وهو سن الهرم فتنقص جميع قواه ، ويعود كهيئته الاولى فى أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه(١) .

---

(١) دراسات قرآنية فى العقيدة والاخلاق والاجتماع للدكتور/ سيد أحمد المسير ص ٨٩ إلى ٩٠ باختصار

وليس هذا فحسب بل إن الإبداع الإلهى يتجلى فى شرح تطورات الحياة الأولى للإنسان ومدى قيمتها العلمية التى تشع نوراً لا يزال الطب عاجزاً حتى الآن عن أن يفتح عينيه فى مواجهته ، وعن الاقتراب من حقائقه ودقائقه أوضحه الحق جلت قدرته — وكشف عن مراحله فقال سبحانه «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم»(١) .

وقال سبحانه « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » .

فقوله سبحانه « خلقاً من بعد خلق » أى حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عادية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف . وأما قوله سبحانه « فى ظلمات ثلاث » فقد قال علماء التفسير إنها ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، أو ظلمة القلب والبطن والرحم (٢) .

أما علماء التشريح فقد قالوا ما يقرب من هذا المعنى جاء فى مجلة لواء الإسلام عدد شوال سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٩٦٤ م للأستاذ صلاح إسماعيل ما نصه « ثم نرهف السمع إلى علم الأجنة لنسمعه يقرر أن الجنين فى بطن أمه يكون محوطاً بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة ، ونرى هذا يلقى أضواء على قول الله تعالى : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من خلق فى ظلمات ثلاث» (٣) .

ولا نرى تفاوتاً كبيراً بين الرأيين فقد تكون المشيمة التى قال بها

---

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ (٢) تفسير النسفى جـ ٤ ص ٥١

(٣) دراسات قرآنية للدكتور المسير ص ٦٠ ، ٦١

أئمة التفسير إحدى هذه الأغشية ، ويعلوها الغشاء آن الآخران .

٤ — تعهد البارى — سبحانه — مخلوقه فى مهده بأن أمر الوالدين برعايته حتى يشتد عوده ، ويقوى صلبه ، وتتفتح غرائزه فيميز بين الأشياء ويدرك من أمور الحياة ما يساعده على أن يعيش ، وأن يسرح ويمرح فنسج سبحانه هذه الرعاية على منوال الأبوة الراعية ، والأمومة الرحيمة .

قال تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده(١) .

٥ — بسط الحق سبحانه يد رعايته للإنسان وهو ما يزال راتعاً فى بحبوحة الطفولة ينعم ويتدلل بين يدى والدين يمنيان النفس باستقامة عوده ، ويستعجلان كبره ورجولته ، لذلك أبان الله — سبحانه — للوالدين طريق سعادة ولدهما ، ورسم لهما ما ينبغى أن يعوداه عليه حتى يشب على سلوك فاضل ، وتربية عالية ، وأمر يستقيم به حاله بعد ذلك قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم »(٢) ،

وبين سبحانه الإذن فى عمومه فيقول « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا

---

(١) البقرة : ٢٣٣ (٢) النور : ٥٨

بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون »(١).

إنها بحق تربية جادة ، ورعاية صالحة ، وأدب محمود يجعل من أفراد الأمة الإسلامية جماعة تعيش حياة سعيدة .

٦ — وبعد هذه الرحلة التي أسس فيها الإنسان على صلاحيته في الحياة واستعداده لأن يعيش نقله إلى مرحلة التمييز ، وبلوغ الرشد ، واكتمال العقل ، وقوة الإرادة وبهذا دخل في دائرة التكليف والمسئولية وهنا تبدأ المرحلة الحاسمة في حياته ، يكبر الإنسان وتكبر معه غريزة حب الاستطلاع التي كان يرددها على أذني والديه ويرى السعادة الكاملة في نفسه لو حظى بالإجابة على سؤاله منهما ، أو من غيرهما وذلك حين يجلس بين يدى معلميه ومؤدبيه ، وهذا السؤال هو من أوجده وأوجد والديه ؟ من خلقهم ولماذا خلقهم ومن أى شيء كان خلقهم الأول والأصيل ؟

كل هذه التساؤلات تدور فى ذهن الإنسان طالبة الإجابة عليها ومن حصل على هذه الإجابة فقد فاز بحياة سعيدة أبدية . ونجد القرآن الكريم يوضح بأسلوب بلاغى رصين الغاية من خلق الإنسان بأنها معرفة الله وعبادته وتوحيده فيقول سبحانه « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون »(٢) .

ويشير سبحانه إلى أن غاية هــذا الخلق لم تكن بالقليلة الفائدة ، أو الرخيصة التى يكون المقصود منها هيناً فيقول عز من قائل « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »(٣) ومن هنا كانت الشرائع السماوية بكتبها وأنبيائها تنادى بعبادة الله وحده لا شريك له ونجد ذلك النداء إلى أنبياء الله من عهد آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام :

---

(١) النور : ٢٧ .   (٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) المؤمنون : ١١٥ .

هذا قليل من كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم من أخبار الأولين، وما فيه من شرائع وأحكام، وعلوم إنسانية، وتوجيه للكون ودراسته، وبهذا يحق لنا أن نقول: إن القرآن الكريم هو المصدر الأول للدعوة الإسلامية .

ثانياً : السنة النبوية :

تشمل السنة النبوية كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير .

وفى عصر الصحابة كان الاتجاه إلى السنة أمراً لا بد منه ، فقد كانت الحوادث تتوالى وما يقضى به فكانوا إذا لم يجدوا حكما فى كتاب الله عز وجل تعرفوا الحكم من السنة النبوية الشريفة ، وقد بين ذلك معاذ بن جبل عندما أرسله النبى عليه الصلاة والسلام إلى اليمن داعياً إلى الله قال يامعاذ بم تحكم إذا عرض لك قضاء قال: أحكم بما فى كتاب الله قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد برأى لا آلو فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى رسول الله (١) .

متى دونت السنة ؟

عمل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ على كتابة القرآن الكريم، وكان له كتاب يكتبون الوحى أولا بأول ، وكان بعض أصحابه يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك غير أن هؤلاء وأولئك كانوا فئة قليلة بجانب الجم الغفير من سواد الأمة الكثير ، والواقع أن كتابة القرآن فى عهده عليه الصلاة والسلام كان الغرض منها زيادة التوثق والاحتياط للقرآن الكريم بتقييده وتسجيله بالنقش فوق تقييده وتسجيله بالحفظ .

(١) سنن أبى داود : كتاب الأقضية .

أما السنة النبوية فقد نهى النبي — ﷺ — أصحابه عن كتابتها أول الأمر مخافة اللبس بالقران اذ قال عليه الصلاة والسلام « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القران فليمحه، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

وقد خشى عليه الصلاة والسلام أن يختلط القرآن بالسنة اذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزع جهودهم وهى لا تحتمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقصرهم على الأهم أولا وهو القرآن خصوصا إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم إلى حد بعيد حتى كانوا يكتبون على اللخاف والسعف والعظام والرقاع كما بينت سلفا، فرحمة بهم من ناحية وأخذا بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية ، وحفظا للقرآن أن يشتبه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظرا إلى عزة الورق وندرة أدوات الكتابة رعاية لهذه الغايات الثلاث نهى عليه الصلاة والسلام عن كتابة السنة (٢) .

فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية وظهر الوضع فى الحديث عرض لسيدنا عمر ابن الخطاب أن يقوم بتدوين السنة ، فقد أخرج البيهقى عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ — فأشاروا عليه أن يكتبها ، فطفق عمر — يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنة ، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا)(٣) .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخ.

(٢) مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٨٥

(٣) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٨٠ ، ١١

وعذره الذى أوضحه رضى الله عنه يتفق مع الظرف الذى كان فيه المسلمون إذ كان القرآن غضا طريا ، والأمم تدخل فى دين الله أفواجا فلا بد من توفرهم على كتاب الله حفظا ودراسة وتلاوة حتى يكون الأساس لعقيدتهم والحامى لها من كل لبس وتغيير .

واستمر الأمر كذلك إلى أن وقعت الفتن ، وانتشر الكذب فى الحديث فنهض أجلاء التابعين ومن بعدهم لمقاومة حركة الوضع ، ويشاء الله سبحانه أن يكون لسيدنا عمر بن عبد العزيز فضيلة السبق فى تدوين السنة كما كان لجده عمر بن الخطاب شرف السبق فى جمع القرآن الكريم فقد أجمعت الروايات على أن أول من فكر فى تدوين السنة وجمعها هو عمر بن عبد العزيز ، فقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم فى عصره أبى بكر محمد بن حزم عامله وقاضيه على المدينة المنورة : أنظر ما كان من حديث رسول الله — ﷺ — فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء (١) .

ولم يكتف عمر بأبى بكر بن حزم بل كتب إلى عماله على الأقاليم (أنظروا حديث رسول الله — ﷺ — فاجمعوه) .

وبذلك حفظ عمر السنة النبوية من الاختلاف والوضع فيها ، ونفذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى جاشت فى نفسه مدة ثم عدل عنها خوفا من التباسها بالقرآن الكريم ، أو انصراف الناس عنه ، كما قدم رضى الله عنه خيرا كثيرا للإسلام والمسلمين حيث حفظ المصدر الثانى للتشريع الذى كان هدفا للضياع لقيام الفتن فى البلاد وانصراف الناس إلى أمور السياسة والإدارة والحروب ، والبعد عن جادة الدين وتعاليمه .

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ص٤٢، ٤٣ عن تاريخ أصبهان .

« السنة النبوية وسيلة للدعوة الإسلامية »

إن أهم ما [illegible] السنة النبوية كوسيلة للدعوة إلى الله فى عصر الصحابة هو ما يلى :

أولا : تضمنها العديد من أنواع [illegible] للقرآن : وذلك أن القرآن الكريم هو كتاب الدعوة المشتمل على حقيقتها وأصولها المتضمن لأهدافها ومقاصدها الناطق بها إيجادا للناس وحثا لهم على اتباع الحق ولذلك كانت سنة النبي — صلى الله عليه وسلم — مبينة للقرآن الكريم من عدة أوجـــه :

فهى إما موافقة لنص الكتاب، أو موضحة لمجمل النص ، أو أتت بزيادة عليه أو نسخته ، وهى بذلك تؤكد ضرورتها ، وأنه لا يمكن الاستغناء عنها فى دستور الدعوة ، بل يذكر ابن عبد البر نقلا عن الأوزاعى أن الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب .

ويقول الإمام أحمد بن حنبل : إن السنة قاضية على الكتاب لأن السنة تفسر الكتاب وتبينه (١) .

ويقول الشاطبى : إن الكتاب هو الهادى ، والمنزل عليه الوحى (رسول الله) مرشد ومبين لذلك الهدى ، والخلق مهديون بالجميع (٢) .

والسنة بدورها هذا مع القرآن الكريم تبين الدعوة وتفصلها وهو دور خطير قام به النبي — ﷺ — ليبين للناس ما نزل إليهم وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى ضرورة السنة التى أتى بها فى قوله « يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢) الاعتصام .

وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجـــدنا فيه من حرام حرمناه ألا وإن ما حرم رسول الله — ﷺ — مثل الذى حرم الله »(١) .

فهى ضرورية إذن مع القرآن الكريم .

ثانياً : سمو بلاغتها وإحكامها :

تعتبر أقوال النبي — ﷺ — فى غاية الجزالة والبلاغة حيث خلت من كل شذوذ واضطراب ، فألفاظه متناسبة ، وجمله متآلفة والمعانى محكمة واضحة لا تنبو عن لفظها وإنما اللفظ والمعنى فى انسجام وترابط كاملين ، فليست اللفظة مستكرهة على معناها وليس المعنى بواجد لفظة أتم له مما أتت ، وفى أقواله عليه الصلاة والسلام من أنواع البيان الرائع ما يجل عن الحصر من ذلك قوله — ﷺ — : « بعثت فى نفس الساعة » يريد أنه بعث على قرب من يوم القيامة ، وقد علق الرافعى على هذا الحديث بما يشير إلى خاصية السنة النبوية فى دلالة اللفظ على معان كثيرة فقال : يريد عليه الصلاة والسلام من هذا الحديث أنه بعث والساعة قريبة منه فوصف ذلك باللفظة التى تدل على أدق معانى الحسن بالشىء القريب وهى لفظة النفس كما يحس المرء بأنفاس من يكون بإزائه ، ولا يكون ذلك إلا من شدة القرب ، وأفرد النفس لأن الساعة نفخة واحدة وهذا معنى ثان ثم هناك معنى ثالث أنه يقول إن عمر الأرض كان طويلا فكانت الساعة بعيدة ثم قصر هذا العمر فبدأت الساعة تتنفس وهناك معنى رابع وذلك أن يقال فيه « فلان فى نفس من ضيقه » إذا كان فى سعة ومندوحة بعد ضيق شد عليه ، وكتم أنفاسه فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول : إن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله .

الساعة آتية وأنها قريبة، وأنها تكاد تكون، ولكن البغتة ... لآخرتهم(١) .

والسنة النبوية دائماً دائماً تشير إلى قصدها وتصل إليه وليس فيها شيء للملل والتسلية، فهي مع إيجازها ... فقد جاء أعرابي إلى رسول الله — ﷺ — بعد ما سمع حديث لا عـدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وقال للرسول — عليه الصلاة والسلام: فما بال الإبل تكون في الرمل وكأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها فقال عليه الصلاة والسلام: فمن أعدى الأول، فسكت الرجل ولم يحر جواباً لأنه سؤال فيه كل الإجابة المقنعة(٢) .

ثالثاً: اتساعها لكافة اللهجات العربية:

على الرغم من أنه عليه الصلاة والسلام من قريش ونشأ في قبيلة بني سعد إلا أن الله — سبحانه — أعطاه قوة البيان ما جعله يقول كلاماً سهلاً معلوماً لدى جميع العرب، وأحياناً كان عليه الصلاة والسلام يقول كلاماً ألفاظه خاصة بقبيلة لم يعاشرها من ذلك قلبه اللام ميماً لوفد قبيلة حمير التي تقلب اللام ميماً في قوله عليه الصلاة والسلام «ليس من أمبر امصيام في امسفر» يعني ليس من البر الصيام في السفر» .

وقد أشار القاضي عياض في كتاب الشفاء إلى هذه الحقيقة بقوله: خص ﷺ بعلم الألسنة، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى أن كثيراً من الصحابة — رضي الله عنهم — كانوا يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

---

(١) نقلا عن كتاب الدعوة الإسلامية ووسائلها ص ١٣١

(٢) الدعوة الإسلامية ووسائلها ص ١٣١ والحديث في صحيح مسلم باب لاعدوى ولاطيرة جـ٨ ص ٣٠

فانظر كيف أنه عليه الصلاة والسلام كان يلاحظ لهجة القبيلة وأسلوبها بما لا إلف لغيرهم به . وهناك أمثلة كثيرة فى كتب السير .

رابعاً : بعدها عن مظنة الكذب أو الخيال :

وحتى لا تبرز السنة النبوية فى بيانها إلا الحق والصدق رفع الله عنها كل ما يتناقض مع حقيقتها نأحاط شخصية النبى — ﷺ — بصفة الصدق ، فهو الصادق قبل الرسالة عند الجميع ، ولذلك نادى عليه الصلاة والسلام على الصفا صادعا بأمر ربه ، وبنى نداءه على أسلوب نفسى حكيم إذ انتزع منهم أولا الإعتراف بأنه صادق أمين ، وأنه لا يخدعهم ولا يغشهم فقال لهم : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد(١) .

وقال لهم فى أحدى اللقاءات : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم(٢) .

وبعد الرسالة كان عليه الصلاة والسلام صادقا فى جده ، يمزح ولا يقول إلا حقا جاءته امرأة عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال لها : إن الجنة لا تدخلها عجوز فقال لها : يقول الله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاءا ، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ، لأصحاب اليمين » .

ومع البيان القولى فى السنة كان البيان العملى من رسول الله لأن العمل له تأثيره فى النفوس أكثر من القول ، وكان صحابته — رضوان

---

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى .

الله عليهم — يأخذون عمله سنة متبعة كقول البراء بن عازب: رمقت الصلاة مع محمد — ﷺ — فوجدت قيامه فركعته فاعتداله بعد ركوعه فسجدته فجلسته بين السجدتين فسجدته فجلسته ما بين التسليم والانصراف قريبا من السواء(١).

فيأخذ الصحابة هذا الوصف لعمل رسول الله ويقارنونه بصلاتهم، ومما كان يساعد على وصول البيان إلى غايته أنه عليه الصلاة والسلام قد أحيط علما بكل ما يلامس أمر الدعوة من بعيد أو من قريب، فخاطب الناس بما يرغبون، ودعا القلوب بأحسن أسلوب إلى الإيمان بالله — سبحانه — فأتت دعوته أكلها طيبة بإذن الله.

ولهذا كان الاتجاه إلى السنة فى عصر الصحابة أمراً لا بد منه، فقد كانت الحوادث تتوالى ويتعرفون حكمها وما يقضى به فيها، فكانوا إذا لم يجدوا حكما فى كتاب الله تعالى تعرفوا الحكم من السنة الشريفة غير مدخرين جهداً فى روايتها.

وتنافس الثقات فى النقل عنه ﷺ، واتخذ الصحابة الكرام تلاميذ لهم من الموالى الذين كانوا من الفرس وغيرهم رواة الحديث عنه ﷺ فنافع مولى عبد الله بن عمر والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم كثيرون من الموالى الذين أسلموا على يد الصحابة تعلموا الإسلام وأخذوه عمن شاهدوا وعاينوا، وكان من بعدهم كمن شاهدوا وعاينوا، وبذلك استقوا الإسلام من الينبوعين الدافقين الكتاب بما أخذوه من تفسير لمعانى القرآن الكريم وما رووه من سنة رسول الله — ﷺ — وكان الكثيرون منهم من رواة السنة وأهل الثقة فيها(٢).

---

(١) صحيح مسلم. باب اعتدال أركان الصلاة ج٢ ص٤٤.
(٢) الدعوة إلى الإسلام — الشيخ أبو زهرة ص ٦٥، ٦٦

ثالثا — «الخطبة المنبرية»

لمحة تاريخية عامة :

كل دعوة دينية أو سياسية تحتاج إلى ألسنة تؤيدها : ويستتبع ذلك وجود ألسنة أخرى تعارضها ، ولقد كان ظهور الإسلام من أهم الأحداث ذات الشان والخطر تلك الأحداث التى أطلقت الألسن من عقالها ، وأثارت الخطابة من مكامنها ، ومنحتها قوة فوق ما كانت عليه فى جاهليتها ، ولقد أبتدء دور الخطابة الإسلامية بظهور الرسول — عليه الصلاة والسلام — خطيبا غير شاعر فأول موقف للرسول خطيبا كان حين نزل قول الله — تعالى «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»(١) حيث دعا قومه على الصفا حين قال : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) .

ولما نزل قوله تعالى : «وأنذر عشيرتك الأقربين» جمعهم ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم .

ولقد كان العمل الأكبر للرسول — عليه الصلاة والسلام — بعد تبليغ القرآن الكريم هو الخطابة ، ثم ورثها من بعده الخلفاء والأمراء ومن بعدهم حتى ورثها خلفاء بنى أمية وعمالهم إلا قليلا ممن أنزفوا فعجزوا عن أدائها وكانوا يستخلفون فيها .

وكان للخطباء من القرآن والسنة فى هذا العصر والاقتباس منهما مدد لا ينفد ومعين لا ينضب ، وحين انقسمت الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان — رضى الله عنه — إلى فرقتين عراقية وعلى رأسها على —

(١) الحجر : ٩٤

— كرم الله وجهه — وشامية وعلى رأسها معاوية — رضى الله عنه — ظهر فى الفرقتين خطباء لايشق لهم غبار وحين انقسمت كل فرقة من الفرقتين إلى أقسام كان لكل قسم خطباؤه. الأمر الذى علا فيه سهم الخطابة والخطباء.

ومن خطباء هذا العصر الخلفاء الراشدون وكثير من الصحابة والتابعين كمعاوية وزياد بن أبى سفيان، والحجاج بن يوسف الثقفى وغيرهم.

والخطبة كما قرر المشتغلون بفن الخطابة تتنوع بتنوع الغرض منها فقد تكون سياسية إذا كانت تستهدف شأنا هاما من شئون الأمة كالخطب التى تلقى فى البرلمانات، أو المعارك الانتخابية أو المؤتمرات الدولية.

وقد تكون قضائية كالتى تكون فى ساحة القضاء لإقرار حق أو دفع ظلم، وقد تكون حربية كالتى تكون من القائد لجنده يستنفرهم لملاقاة عدوهم، أو يشحذ عزائمهم ويستحث هممهم لردعه ودفع عدوانه والتغلب عليه، وقد تكون حفلية كتلك التى تلقى فى المحافل للتكريم أو التأبين أو فى تهنئة لنعمة، أو فى علاج مشكلة اجتماعية أو الدعوة إلى مشروع يفيد الأمة ويدعم كيانها، وقد تكون دينية وهى التى تعتمد على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحبب إلى الناس الخير وتبغض إليهم الشر وتوجههم إلى خشية الله وتقواه وحبه والتقرب منه.

وحين نتحدث عن الخطابة الدينية نرى أنها إما أن تكون منبرية كالخطبة لصلاة الجمعة أو العيدين، وإما أن تكون فى مجتمع يراد تبصيره بشأن من شئون الدين كتلك التى تأتى فى المناسبات الدينية العامة أو الخاصة.

والذى يعنيناهنا هو الخطبة المنبرية باعتبارها وسيلة فعالة من وسائل الدعوة والخطبة المنبرية فى ظل الدين الإسلامى قد عرفت منذ أقيمت شعائر صلاة الجمعة وذلك يدعونا إلى أن نعرف تاريخها، ومتى فرضت وفيما يأتى بيان ذلك.

تاريخها: لقد كان لكل أمة من الأمم يوم يحددون به بدأ الأسبوع ونهايته وجاءت الأمة الإسلامية، وكان لابد لها من أن تتميز بشخصية متكاملة فى كل ما يهمها فى دنياها وآخرتها.

وكان من فضل الله أن هداها إلى يومها الذى يحدد بدأ الأسبوع، وكان يوم الجمعة.

فقد روى عبد الرزاق باسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها الرسول وقبل أن تنزل الجمعة (أى سورتها) قالت الأنصار: لليهود يوم يجمعون فيه كل أسبوع، وللنصارى مثل ذلك فهلم فانجعل يوما نجمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموا الجمعة.

فيكون الاجتهاد فقط فى الخطبة قبل الصلاة، ولا ضير فى تقديم حمد ووعظ قبل الركعتين، كما أن حديث ابن سيرين المرسل يدل على أن الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالإجتهاد، ولا يفوتنا أن فعل الرسول — ﷺ — بعد ذلك قد وافق صنيع أسعد وأقره.

أول جمعة صلاها الرسول ﷺ

ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أقام فى قباء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، كما قال ابن اسحاق وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها بالمسجد الذى فى بطن الوادى .

وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة قبل تأسيس مسجده ، ثم قام فيهم خطيبا ، وكانت أول خطبة خطبها الرسول — ﷺ — أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس قدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ، فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ،

فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله(١) .

ولقد جاء فى الاتقان للسيوطى ما أخرجه عن نزول آية الجمعة فإنها مدنية والجمعة فرضت فى مكة .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما — أن أول جمعة بعد الجمعة التى جمعت بمسجد رسول الله — ﷺ — فى مسجد عبد القيس بجواثى بين البحرين رواه الترمذى وأبو داود .

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ٩٩

رابعا : الفتوح الإسلامية

من مزايا الشريعة الإسلامية الجليلة أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والفطرية ، وتجابة المعضلات بالحل العملي ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام اعداء الإسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة ، وما دام أهل الشر ذوى سلطان خطير.

فإن الحرب واقعة بين الناس ، فلم يقف الإسلام أمام هذه الحقائق مكتوف اليدين بل واجهها بالحزم والعزم اللذين لازما الرسول فى دعوته طول حياته فأمر بالاستعداد لها.

قال تعالى: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم،(١).

فجعل العدة نفسها للإرهاب الذى قد يمنع الحـــرب ويحفظ السلم والذى يطالع آيات القتال فى القرآن الكريم ، ويقرأ سيرة الرسول الكريم فى غزواته وحروبه يجد أن الإسلام لا يبيح حرب الاعتداء ، ولا يحل الحرب لغرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة بل إن غاية الإسلام إنسانية سامية يعم نفعها الناس جميعا ، ونظرته علوية تقع على البشر جميعا كأسرة واحدة متكافلة ، والله — تعالى — ليس رب المسلمين وحدهم بل هو رب العالمين والحرب فى الإسلام ليست لامتلاك الأرض أو لاستعلاء طبقة على طبقة أو لأغراض اقتصادية ، أو غـــير ذلك مما تتخذه الدول وسيلة لاشعال الحرب ونقض العهد ، وعدم السلم الدائم

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

هذه الدعوة المحمدية جاءت لتفرض أن حالة السلم بين النـاس هى الأصل ، وأن عدوان بعضهم على بعض هو وحده الذى يزعج هذا السلم ويضرم لظى الخصومة ، لذلك اعتبرت الحرب حالة ضرورية يطلقها من عقالها العدوان والظلم ويبيحها التكافل البشرى فتقع لنصرة مستضعف مظلوم قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »(١).

وفى صحيح البخارى أن رجلا جاء إلى النبى — ﷺ — فقال الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله قال — ﷺ — من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وفى كتاب أبى بكر — رضى الله عنه — الذى كتبه للمرتدين من العرب قبل أن تسير الجيوش اليهم يتضح لنا منهج الاسلام فى محاربة أعدائه ، فقد جاء فى هذا الكتاب .

وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان ، قال الله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقال «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» إنى قد بعثت اليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه .

---

(١) سورة الحج .

ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ، ويقتلهم كل قتلة .

وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمر رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان افإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم ، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغى »(١) .

وفى هذا الكتاب وضع أبو بكر الصورة كاملة أمام أعداء الإسلام قبل أن تداهمهم جيوش المسلمين فهو قد أعطى الأمر لقراده أن لا يقاتلوا أحدا حتى يدعونه إلى الإسلام أولا فان أستجاب وأقر قبل منه ذلك وصار فى مأمن على نفسه وماله وان أبى كان جزاؤه كما قال أبو بكر أن يقاتل وأن يحرق بالنار ، وأن تسبى نساؤه وذراريه .

إذن غاية الحرب فى الإسلام هى اعلاء كلمة الله ، والتمكين فى الأرض لدين الله ولهذا كان شعار الحرب عند النصر هو الرحمة ، وعدم التنكيل بالأعداء فضلا عن الوفاء بالعهود وعدم الخيانة سرا أو جهرا وأن ذلك خلق المؤمنين . قال تعالى « والموفون بعهدهم أذا عاهدوا »(٢) .

وقال سبحانه : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين »(٣) .

---

(١) تاريخ الأمية الإسلامية جـ١ صـ١٧٥

(٢) البقرة : ١٧٧

(٣) التوبة : ٧

الفتوح والدوافع الاقتصادية

بينت فيما سبق أن الهدف من الفتوح في الإسلام هو إعلاء كلمة الله ، ونشر الدعوة الإسلاميـــة بين جميع الناس ، وأقمت أدلة على ذلك من الكتاب والسنة وعمل الصحابة وسأناقش هنا أعداء الإسلام فيما يثيرونه من مزاعم زائفة حول الفتوح الإسلامية : فالمستشرق « توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام يقول وكان أقوى من ذلك جذبا إلى الإسلام أملهم الوحيد في الحصول على غنائم كثيرة ، إذ يجاهدون في سبيل الدين الجديد ، ثم أملهم في أن يستبدلوا صحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس ، تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر » (١)

وعلى هذا المنوال ينهج الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي رئيس مجلس إدارة روز ليوسف في كتابه « محمـــد رسول الحرية » فيقول : ان كل ما كان يسيطر على أصحاب الرسول في الجهاد هي أحلام الغنى .

ويقول متحدثا عن حالتهم بعد معركة أحد : كانت حالة من حب المقامرة قد أستولت على كل النفوس بعد أن سحقت قريش أحلام المسلمين بالأغنام والأسلاب في أحد . أما الذين خرجوا إلى أحد مدفوعين بأحلام الغنى فقد عادوا كلهم مجانين من الغيظ ، واتجهوا إلى المقـامرة عسى أن تعوضهم عن أحلام الغنى التي أهدرت في جنبات أحد . (٢) .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٨٩
(٢) محمد رسول الحرية ص ٢٢٧

وصاحب القول الأول غير مسلم ، وصاحب القول الثانى مسلم وكلا القولين هراء وافتراء على المسلمين الأولين الذين لم يدر بخلد واحد منهم أن يغتنى من وراء الحرب أبدا هؤلاء السلف الصالح الذين وصفتهم رسل المقوقس بهذه الكلمات — والفضل ما شهدت به الأعداء — «رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على الركب وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف واحد منهم يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم » هذه هى الصفات الجماعة التى أدبت الكفر فى لقائها به .

ولذلك قال المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها .

فأين الغرض المادى فى نفوسهم ، وأين التطلع إلى الثراء عندهم ؟ .

ولهذا فإننا لا نجد عناء فى تفنيد مثل هذه الإفتراءات والمزاعم .

فإن الروح التى كانت تسيطر على جنـود المسلمين وهم يجوبون الأقطار ويفتحون البلدان ، وينشرون الأنوار هى أن العمل لله ، والجهاد لله والهجرة فى سبيل الله فكانت حركاتهم الخفية والجلية محصورة فى نطاق من نوع خاص ، نطاق إخلاص النيـة لله ، وتجريد القصد له سبحانه ، وفى ظلال هـذه المعانى كلها يتلاشى أى ظل لهدف مادى ، أو هوى نفسى أو مأرب شخصى .

وتتمثل الأهداف الحقيقية للفتوح الإسلامية فى الأمثلة التالية :

١ — عندما يسأل رستم — قائد جيش الفرس فى معركة القادسية

قواد جيش المسلمين الثلاثة وهم ربعى بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة واحدا بعد واحد فى ثلاثة أيام متوالية قبل المعركة قائلا لهم : ما الذى جاء بكم ؟ فقالوا له : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر .

فهم لم يقولوا خرجنا نوسع رقعتنا، أو نستكثر من المال والغنى ، أو أخرجنا الجوع وسوء الأحوال الإقتصادية ، أو خرجنا نصد عدوان الفرس ، أو الروم علينا ، أو خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ، وإنما كان جهادهم لإخراج من شاء الله من الظلمات إلى النور ، ومن ظلم العباد إلى عدل الله سبحانه — ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، العباد إلى عدل الله سبحانه — ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

٢ — جاء فى كتاب « البداية والنهاية» لابن كثير أن رستم لما أصبح ركب وأشرف على أحد أمراء المسلمين ، وعرض عليه الصلح على أن يجعل له جعلا هو ومن معه فرد عليه القائد العربى المسلم : انا لم نأتكم لطلب الدنيا ، والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ورفض القائد العرض المادى لان ذلك ليس غايتهم ولا هو هدفهم وإنما الهدف هو نشر الدعوة الاسلامية ، وكتاب الله يعلمهم ورسوله يرشدهم على أن تكون النظرة إلى الآخرة لا إلى الدنيا وفى سبيل الله لا فى سبيل النفس والهوى .

قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيــاة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما(١) .

وقال سبحانه « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة »(٢)

وفى صحيح البخارى أن رجلا جاء إلى النبى — ﷺ — فقال : الرجل يقاتل للمغنم . والرجل يقاتل للذكر : والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟

قال ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله .

ثم إن العرب بشهادة التاريخ لم يكونوا يعيشون فى مجاعة ، بل كانوا أغنياء وكانوا يعيشون فى شبه اكتفاء ذاتى . واقتصاد مستقر ، ويتبادلون التجارة فى رحلتى الشتاء والصيف إلى شمال الجزيرة وجنوبها كما فى قول الله تعالى « رحلة الشتاء والصيف » فكانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشــام فيمتارون ويتجرون وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله فلا يتعرض لهم ، وغيرهم يغار عليهم (٣) .

كما كان للأنصار فى المدينة أملاك وبساتين ، وكانوا ذوى يسار وسعة فى الأموال ، وكذلك المهاجرون اشتغلوا بالتجارة فحسن حالهم واتسعت

---

(١) سورة النساء : آية ٧٤
(٢) سورة النساء آية ٩٤
(٣) تفسير النسفى جـ ٤ صـ ٢٧٨

لكثير منهم الدنيا وسخروا هذه الأموال للتمكين لدين الله في
في سائر أنحاء البلاد ، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ

معاملة الفاتحين لأهل البلاد التي فتحوها وأثر ذلك

لقد شهد التاريخ وأكدت الوقائع أن تعاليم هذا الدين وعمل أتباعه كانا محل إعجاب الدنيا وانبهار العالم ، وأن الناس لما درست حقيقته وشاهدت معالمه أحبوه لا عن غضاضة وإكراه بل عن حب واقتناع ، لأنه سار على الفطرة التي فطر الله الناس عليها فلا تخالف ولا تباعد بين الإسلام والفطرة :

يذكر توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » إن أهل حمص غلقوا أبوابهم دون جيوش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم .

ويتمثل هذا العدل في الكتاب الذي بعثه خالد بن الوليد لأهل الفرات ونصه ما يلي :

إن هذا الكتاب من خالد بن الوليد لصلوبا نسطونه وقومه إني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا .

ويؤيده بالعمل ما رواه البلاذري في فتوح البلدان والأزدي في فتوح الشام رد الصحابة لما كانوا أخذوا من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور موقعة اليرموك بأمر أبي عبيدة ، وقد صرحوا لهم أنهم أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها عند عدم وجود هذه الصفة فعجب أهل حمص نصارهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم

ودعوا لهم بالنصر على الروم (١)

فالجزية إنما كانت لاتؤخذ إلا من القادرين الذكور من أهل الذمة فى مقابل أداء الخدمة العسكرية التى كانوا سيطالبون بها لو كانوا مسلمين فهى كانت تؤخذ فى مقابل حمايتهم . والدفاع عن بلادهم وكان يعفى منها العجزة والأطفال والنساء والعبيد وغيرهم ممن لا يستطيع أن يؤدى الخدمة العسكرية لو كان مسلما . فإذا حدثت ظروف حالت بينهم وبين حماية البلدة التى أخذوا على أنفسهم حمايتها والتى من أجل هذه الحماية يأخذون الجزية فإنهم يردون الجزية إلى أهلها . ويعتذرون إليهم بأنهم لم يتمكنوا من الدفاع عنهم .

ولم يقتصر المسلمون فى حسن معاملتهم لأهل البلاد التى فتحوها على وضع الجزية عن الضعفاء من أهل هذه البلاد بل جعلوا للضعفاء نصيبا مفروضا من بيت المال .

فقد رأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — شيخا ضريرا يسأل على باب فلما علم أنه يهودى قال له ما ألجأك إلى ما أرى ؟

قال : الجزية والحاجة والسن .

فأخذ عمر — رضى الله عنه — بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه مايكفيه ساعتها وأرسل إلى خازن بيت المال يقول له : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله فى الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين

(١) الدعوة إلى الإسلام لارنولد ص ٧٩ ، ومذكرة فى علم الخطابة للشيخ إبراهيم الدسوقى .

من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضرباته (١) .

والمسلمون بعد رسول الله — ﷺ — قد أطاعوا الله ورسوله حيث جعلوا لأهل البلاد التى فتحوها الخيار بين أعتناق الإسلام أو دفع الجزية .

وكانت أمنية المسلمين أن يسود الإسلام فى كل بقاع الأرض ففى ذلك السعادة حتى ولو أدى إلى نقص الجزية ، أو عدم وجود من يدفعها بدخول جميع الناس فى الإسلام ، يصور ذلك ما حدث من حوار بين عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — وبين عاملة على مصر الذى كتب إلى الخليفة مقترحا أن لا يعفى الداخلين فى الإسلام من المصريين من الجزية ويقول : أن أهل الذمة قد أسرعوا فى الدخول فى الإسلام وكسروا الجزية ويرد عليه عمر :

أما بعد فإن الله بعث محمد داعيا ولم يبعثه جابيا فإن كان أهل الذمة أسرعوا فى الدخول فى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل (٢) .

ويقول الأستاذ عبد الرحمن عزام : تلك الحادثة تقرب لنا تصور الحالة الذهنية فى القرن الأول لظهور الدعوة المحمدية ، فلابد أن قدر التسامح الدينى كان على أعظم جانب وأن حرية العقيدة كانت فى أوجها ،

---

(١) الاشتراكية العربية فى ضوء الإسلام ص ٢٨ ، ومر وهو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (فتوح البلدان ص ١٣٥).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص٣٨٢

وإلا فكيف نستطيع أن نتصور واليا يكتب لخليفة المسلمين هذا الكتاب إذا كان فى المحيط الذى يعيش فيـــه أى أثر للتعصب أو الرغبة فى قهر الناس على الدخول فى الإسلام . إن تناول الموضوع بهذه الصورة دليل على أن الوالى الذى يحس طبعا بحس البيئة كان يكتب فى شىء لا يظنه عجيبا ، ولا يراه منكرا ، وإلا كان هـذا الوالى عرضة لفتك الجماهير بل وانتقام الخليفة إرضاء لهذه الجماهير .

لم يعـاقب الخليفة واليه بعزله بل كان ما كان أن قبح رأيه وهو الذى يحاول منع الناس من الإسلام احتفاظا بدفع الجزية (١) .

وبرفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة سارع الناس إلى الدخول فى الإسلام فنقص مورد الجزية مما أدى إلى تذمر عمال الولايات لما أصاب بيت المال من العجز الكبير إلا أن عمـر بن عبد العزيز التزم بدستوره الذى سنه « الهداية لا الجباية » .

يكتب إليه عامل على إحدى الولايات بأن الجزية نقصت لدخول الناس فى الإسلام ، فيرد عليه : فهمت كتابك ووالله وددت أن يكون الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا (١) .

وكتب عمر إلى عامله على خراسان أن يدعـــو أهل الجزية إلى الإسلام ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فقال له رجل من أشراف خراسان : إنه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية

(١) الرسالة الخالدة ص ٣٠٢

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٠٠

فامتحنهم بالختان فقال : أنا أردهم عن الإسلام بالختان ؟؟ هم لو قد أسلموا لحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع ، فأسلم نحو أربعة آلاف على يد الجراح بن عبد الرحمن . (١) .

وبذلك أعلن عمر أنه لاجزية على من أسلم من أهل الذمة حتى لو أسلموا كلهم .

لكن يأتى هنا سؤال . هل ألحق عمر بن عبد العزيز بسياسته مع أهل الذمة أذى ببيت المال ، أو أصابه بعجز مريع ، وكسر لا يجبر أم أنه أعاد المالية إلى ما يجب أن تكون عليه ، وأوجد توازنا بين موارد الدولة ؟ المستشرقون ، والوضعيون يقولون : إن عالم الاقتصاد لا يمكن أن تحكمه القيم والمثاليات وإلا تعرض للتصدع والإنهيار فهم يعتقدون أن تضحية كهذه التى كانت موردا دفاقا يصب فى بيت المال من أجل نشر الدعوة ، ورفــــع شعار الهداية لا الجباية هذه التضحية لابد أن تحدث اختلالا فى السياسة المالية ، ونقصا مريعا فى موارد الدولة . ومن ثم إلى عجز تام إزاء ما يستجد من حاجات ، هذا الإعتراض كما يقول أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » هو حجة الثائرين على الدين ، والمعارضين لتطبيق الأحكام الإسلامية على النظم والحكومات والداعين إلى فصل الدين عن السياسة فى كل مكان (٢) .

إن ما يقوله المستشرقون والوضعيون إنما هو زيف وهراء ، وحكم بالظن والتخمين وعدم تتبع للحقائق التاريخية الثابتة ، وهل يغنى الظن من الحق شيئا .. صحيح ان عمر بن عبد العزيز رفع شعار « الهداية لا الجباية »

(١) الطبقات الكبرى جـ ٥ صـ٣٨٦

(٢) رجال الفكر والدعوة صـ ٤٩

ورفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وكتب إلى عامل له تخوف عاقبة انتشار الإسلام بين أهل الذمة أنه يسره أن يحرث الأرض ويأكل من عمل يده إذا أسلم أهل الذمة كلهم فتنقطع الجزية وتعجز مالية الدولة عن كفالته . إلا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يرتجل أبدا خطوة خطاها فى يوم من الأيام لأنه كمسئول عن أمة يحسب ألف حساب لكل خطوة ويضع الضمانات الكافية لكل سياسة يعتزم تنفيذها لأنه يعرف يقينا أن ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الأمة للخطر ، ولابد لدرء هذا الخطر من وضع خطط عملية تضمن للأمة بقاءها واستمرارها ونموها وقدرتها على أداء واجباتها تجاه العالم كله ولابد أن يفتح أبوابا لموارد جديدة فيتحرك المسلمون إليها .

لهذا نرى عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — يتخذ من إجراءات الموازنة بين مصالح الأمة وبين رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ما يدل على سياسته الحكيمة . وينفى ترهات وأكاذيب المستشرقين والوضعيين وتتمثل هذه الإجراءات فيما يأتى :

١ — فتح عمر باب التجارة الحرة فى البر والبحر وأعلن فى قانونه الأساسى للأمة « أما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر » الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله » فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء وأرى أن لا تحول فيه بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعا ، سخرها لعباده ، يبتغون فيها من فضله ، فكيف تحول بين عباد الله وبين معايشهم(١) .

فعن طريق حرية التجارة أوجد عمر موردا حيويا لتنمية الثروة ورفع مستوى المعيشة وتهيئة الاحتياجات بأرخص الأسعار .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٨٢

٢ — فريضة الزكاة : لم يتهاون عمر فى جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما أمر الله به ورسوله ، وقد جاء فى إحدى تأكيدات عمر عنها « أن الله فرضها ، وسمى أهلها ، فتؤخذ لا ليحابى بها قريب ، ولا يمنعها أهلها ثم يجعل إلى مرضيين من أهل الإسلام فيجعلونها حيث أمرهم الله ، يحملهم الإمام من ذلك ما حمل »(١)

ومورد إسلامى كهذا لم يكن يجبى ارتجالا إنما كان له عماله القائمون على جمعه بشكل دقة ومن هنا يمكن أن نتصور المقدار الكبير من الدخل الذى تجنيه الأمة من وراء هذا المورد ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ونشر الرفاهية بين أبناء الأمة .

٣ — اتبع عمر سياسة زراعية سليمة فأشار على عماله بأن الاهتمام بالاصلاح ، وإحياء الأراضى وإقامة المشروعات يجب أن تسبق التأكيد على الجباية ، يتضح هذا فى كتابه الذى أرسله إلى عامله على الكوفة يقول فيه « لاتحمل خرابا على عامر ، ولاعامر على خراب ، انظر الخراب وخذ منه ما أطاق حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض(٢)

وكتب إليه عامله على البصرة يعرض عليه طلب أهل البصرة فى حفر نهر لهم فأذن له عمر . وقام العامل بحفر النهر المعروف باسم ذلك العامل (نهر عدى)(٣)

ولا شك أن الاهتمام بالزراعة قد أوجد رخاء فى البلاد علاوة على زيادة الخراج — إيجار الأرض — الذى لم يتهاون عمر فيه قليلا ، والذى

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٨٠
(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٥٦٩ (٣) فتوح البلدان ص ٤٥٤

لايجوز لأحد إبطاله ، فإذا أصبحت الأرض الخراجية فى ملك مسلم فعليه أن يؤدى عنها حق الإيجار وهو الخراج ، وإذا أسلم ذمى أعفى من الجزية وله أمواله المنقولة أما أرضه فإما أن يدفع عنها الخراج ، أو يتركها لغيره ويذهب أنى شاء(١) .

وبهذا الاهتمام العظيم بالزراعة والضرائب الخراجية تمكن عمر من تعويض بيت المال مافقده من اسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة .

٤ — استطاع عمر — رضى الله عنه — أن يوفر مبالغ طائلة لبيت المال كانت الحكومات السابقة تهلكها فى القضاء على الفتن الداخلية والحروب ، فإن أية حكومة سابقة كانت ستشهر السيف فى وجه ثورة الخوارج ، على الرغم من أنها ستضمن النصر لتفوق قوتها على قوة الخوارج إلا أن ذلك سيكلفها الكثير من نفقات الحرب عتاداً ورجالا ، ولكن عمر باتباعه الاسلوب السلمى مع الخوارج وفر على الأمة مبالغ كبيرة ، ومثل هذا بالنسبة لكل ما كان يمكن أن يحدث من ثورات تحتاج حلا حربيا استطاع عمر بحسن سياسته وبعد نظره أن يوحد الأمة الإسلامية ، ويبعدها عن استنفاد طاقتها فى الصراع الداخلى .

وقد وفرت هذه السياسة السليمة أموالا كثيرة عادت على الناس بالنماء والخير وعوضت مافقده بيت المال .

٥ — لما أوقف عمر الفتن والاضطرابات والعصبيات القبلية والحروب واجتث كل أنواع الظلم من جذورها خلق جواً من الأمن والاستقرار هيأ لأفراد المجتمع الإسلامى بكافة فئاته العمل المستمر والنشيط واثقين أن نشاطهم لن تضيعه رياح الفتن والمنازعات

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٩٤ .

إن عدلا كهذا ، وأمنا واستقرار ينشران جناحيهما على كل أقاليم الأمة وعملا دائبا نشيطا لابد أن يزيد ذلك كله موارد الامة كى تعود بدورها لتوزعه على نقاط الضعف فيها ، وترفع مستواها إلى الأفق الحر الكريم فى ظل خليفة راشد يرى رعيته جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وكنماذج حية لما كانت الأمة تعيشه فى عهد عمر بن عبدالعزيز من رخاء عم الجميع عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء تتطلب حلا سريعا(١)

ولزيادة التأكيد فى الردعلى المستشرقين والوضعيين نرى يحى بن سعيد عامل الخليفة على جمع زكاة افريقية — يقول : بعثنى عمر بن عبد العزيز لجمع زكاة افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء اعطيها لهم ، فلم أجد فقيرا ولم أجد من يأخذها منى ، فقد أغنى عمر الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين (٢)

وكان منادى عمر ينادى كل يوم أين الغارمون ، أين الناكحون ، أين اليتامى حتى أغنى كلا من هؤلاء(٣)

ولما قدم على عمر بعض أهل المدينة المنورة جعل يسألهم عن أهلها ويقول : مافعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا ؟ قال : قد قاموا منه ياأمير المؤمنين وأغناهم الله وكان من أولئك من يبيع الحطب

---

(١) رجال الفكر والدعوة ص٤٩
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٦٩
(٣) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٠

للمسافرين فالتمسوا ذلك منهم فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبدالعزيز(١)

إلى غير ذلك من الادلة والشواهد الكثيرة التى تقطع أعناق المستشرقين الطاعنين فى سياسة عمر بن عبد العزيز وغيره من خلفاء المسلمين الذين رفعوا الجزية عمن أسلم من أهل الذمة .

ونستخلص من كل ماتقدم أن هدف الفتوح الإسلامية كان هو نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله فى كل مكان ، يقول « استانلى لانى بول » إن تحمس العرب للفتوح كان يوجهه عنصر قوى من الرغبة فى نشر الدين، فقد حاربوا لانهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لان مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله(٢)

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٧٧
(٢) مقارنة الاديان ـــ الإسلام ـــ للدكتور أحمد شلبى ص١٩٠

المبحث الثالث

الفرق الإسلامية ودورها فى نشر الدعوة

تمهيد :

نزل القرآن الكريم لإصلاح الناس وإسعادهم فى كل مجالات الحياة لإصلاح للفرد ولإصلاح المجتمع ولإصلاح الامة ، فمن التوى بالقرآن تفريقاً لصف أو إشاعة لفتنة ، أو تمهيدا لتفريق فقد بعد عن الطريق السوى ، وتلاعب بكلام الله عز وجل — وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم أن كل الفرق والمذاهب الإسلامية بدأت من التأويل والإجتهاد فى الآيات المتشابهة فيصبحوا جميعا متفقين ومتوحدين حول أن يصلح القرآن كل إنسان وفى كل زمان ومكان :

ويمكن حصر الأسباب التى دفعت إلى تكوين الفرق والمذاهب الإسلامية فيما يلى :

أولا : بالنسبة للفرق الكلامية كالمعتزلة والأشعرية وغيرها .

١ — السياسة والحكم ، ولعل من أوضح الدلالات على ذلك الشيعة والخوارج .

٢ — الرد على الاسرائيليات فقد دس الاسرائيليون سمومهم الهدامة القاتلة خصوصا حول تفسير القرآن والأحاديث بل وضعوا كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ — لما عجزت سيوفهم ودكت قلاعهم ، وسقطت حصونهم ، وعجزوا عن النيل من الإسلام بالقوة فأعملوا الأقلام والأفواه والفكرة

٣ — الرد على شبهات الخارجين خصوصاً بعد أن اتسعت ساحة الإسلام للدخلاء واستعان الحكام بالأجانب وتسربت الآراء الأجنبية الدخيلة الهدامة عن طريق الترجمة وغيرها .

و[illegible] يبين مدى إسهام غير العرب الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد التي فتحت بعلوم اللغة والشريعة جاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه قال : قال لي ابن أبي ليلى قال لي عيسى بن موسى — وكان ديانا شديد العصبية للعرب من كان فقيه العراق ؟ قلت الحسن بن أبي الحسن ، قال ثم من ؟ قلت ابن سيرين قال فما هما ؟ قلت موليان .. قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال ، قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح قال فمن هؤلاء ؟ قلت موال فتغير لونه ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأي وابن أبي الزناد ، قال فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي فأربد وجهه ، ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه وابن منبه قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالي ، فانتفخت أوداجه وانتصب قائماً قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخرساني قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تربدا ، واسوداداً حتى خفته ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا قلت مولى فتنفس الصعداء ثم قال : من كان فقيه الكوفة ، فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيته فيه الشر فقلت إبراهيم النخعي والشعبي ، قال فما كانا قلت عربيان ، فقال : الله أكبر وسكت جأشه(١) .

---

(١) نقلا من كتاب الدعوة إلى الإسلام للشيخ أبو زهرة ص ٧٦

أما أسباب تصارع هذه الفرق وتخاصمها فيرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية :

١ — الهوى والأنانية ، وهما دخيلان على البيئة الإسلامية .

٢ — السلطان : إنتصاراً به ، أو انتصاراً له لأنه لما ضعف السلطان والحكم حاول بعض السلاطين أن يتقووا بأصحاب الفرق ، وينتصروا كما حاول المنحرفون أن ينتصروا بالسلطان على ضعفهم وضعفه .

٣ — البغى : وصدق الله العظيم إذ يقول « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه »(١) .

ثانياً : بالنسبة للمذاهب الفقهية : فيرجع اختلافهم إلى الأسباب الآتية :

١ — إختلاف البيئة التى يعيشها الفقيه ،

٢ — إختلاف الثقافة .

٣ — إختلاف الزمان والحوادث(٢) .

وسأختار من بين الفرق الإسلامية فرقتى الخوارج والمعتزلة مبينا دورهما الإيجابى فى الدفاع عن الإسلام .

---

(١) سورة البقرة : ٢١٣

(٢) الفلسفة الحديثة فى الميزان للدكتور / بدران .

أولا : الخوارج :

هم طائفة من أهل العراق من جيش على بن أبى طالب — رضى الله عنه — زعموا أن علياً قد قبل التحكيم طائعاً — ذلك أنه لما كانت موقعة « صفين » بين على ومعاوية — رضى الله عنهما — وطلب معاوية تحكيم كتاب الله اختلف أصحاب على رضى الله عنه أيقبلون هذا التحكيم لأنهم يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دعوا إليها ، أم لا يقبلون لأنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وصحبه لما أحسوا بالهزيمة ، وبعد جدال وتردد قبل على التحكيم واختار معاوية عمرو بن العاص ليمثله ، واختار أصحاب على أبا موسى الأشعرى حينئذ ظهر قوم من جند على نفروا من أن يحكم أحد فى كتاب الله ، ورأوا أن التحكيم خطأ لأن حكم الله واضح جلى ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما الحق ولا يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم موقنون أن الحق فى جانبهم ، هذه المعانى التى استولت على فكرهم صاغها أحدهم فى الجملة الآتية « لا حكم إلا لله » فسرت الجملة سير البرق إلى كل من يعتنق هذا الرأى وتجاوبتها الأنحاء وأصبحت شعار هذه الطائفة .

طلبوا من على أن يقر على نفسه بالخطأ بل بالكفر لقبوله التحكيم ويرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا إليه وقاتلوا معه فأبى على ولم يرجع عن الإتفاق الذى أمضاه ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ولو رجع لتفرق عنه سائر أصحابه ، وكيف يقر على نفسه بالكفر وهو لم يشرك بالله منذ آمن فضايقوه بالإكثار من قولهم « لا حكم الا لله » فإذا خطب فى المسجد قاطعوه بقولهم « لا حكم الا الله » فتجاوبت بها أنحاء المسجد ورآه أحدهم فتلا قول الله تعالى « ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

الخاسرين »(١) يقصد التعريض به ، وزاد بعض الناس ميلا الى رأيهم فشل الحكمين فى حكمهما .

فلما يئست هذه الجماعة من رجوع على الى رأيهم اجتمعوا فى منزل أحدهم وخطب خطيبهم فقال « أما بعد ، فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون الى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والقول بالحق ، وان من وضر فانه من يمن ويضر فى هذه الدنيا فان ثوابه يوم القيامة رضوان الله — عز وجل — والخلود فى جناته ، فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ، أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة تسمى « حروراء » وسموا حينذاك بالحرورية نسبة الى هذه القرية .

وبالمحكمة : أى الذين يقولون لا حكم الا لله ، وقد حاربهم سيدنا على فى موقعة النهروان ، وهزمهم وقتل منهم كثيراً ولكنه لم يبدهم ولم يبد فكرتهم ، وزادت هذه الهزيمة فى إمعان الخوارج فى كره على — رضى الله عنه — حتى دبروا له مكيدة قتله ، فقتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجى ، وقد كان زوجا لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها فى موقعة النهروان وقد وقع هذا الحادث فجر يوم الجمعة سبعة عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة .

فرقهم :

وقد انقسم الخوارج الى ما يربو على عشرين فرقة أشهرهم أربعة :

(١) الزمر : ٦٥

١ — الازارقة　　　　٢ — الصفرية

٣ — النجدات　　　　٤ — الإباضية

أولا : الازارقة :

هى فرقة تنسب إلى نافع بن الازرق وهى أشد الفرق مغالاة فى معاملة غيرهم من المسلمين لأن الخوارج فى جملتهم كانوا حزبا ثائرا تقيا وإن التقوى عندهم كانت فى أعلى درجاتها ، فإن الله سبحانه وتعالى — قد طلب من المسلم عندما تترك أوامره وتنتهك حرماته ألا يسكت على ذلك ، وأنه يجب عليه زيادة على فعل الطاعات واجتناب المنهيات تعميم ذلك فى كل مكان من الأمكنة ، وأن الخروج على المنكر والظلم واجب على كل فرد . وهذا مبدأ اسلامى عام عند جميع المسلمين ولكن تحقيقه على وجه عملى لا يراعى فيه الزمان ولا المكان أو أى شىء آخر وهذا ما تميز به الخوارج لذلك يرون ان جهادهم ليس موجها ضد المشركين ولكنه موجه ضد المسلمين لانهم يرونهم اشنع من المشركين ومن اليهود والنصارى والمجوس فاستباحوا دماءهم رجالا ونساء وأطفالا ولا توارث ولا تناكح بينهم ولا تحل ذبائحهم :

ثانيا : الصفرية :

فرقة تنسب إلى قائدهم زياد بن الأصفر ، وهى فى المغالاة بالنسبة للمسلمين كالأزارقة .

ثالثا : النجدات :

فرقة تنسب الى قائدها نجدة بن عامر ، وهذه الفرقة تختلف عن بقية الخوارج فى أشياء منها :

(أ) أن الدين معرفة الله — عز وجل — ومعرفة — رسوله —

وما عدا ذلك فالمرء معذور فيه بجهله حتى تقوم عليه الحجة فيجب أن يؤمن والا كفر .

(ب) وان من اجتهد فأداه اجتهاده إلى تحليل حرام أو تحريم حلال فهو معذور .

(ج) وان الكذب أعظم جريمة من الزنا وشرب الخمر .

رابعاً : الإباضية :

فرقة تنسب الى قائدها عبد الله بن إباض التميمي .

وهذه الفرقة ما زالت باقية الى الآن فى طرابلس الغرب بليبيا ، ومن مبادىء هذه الفرقة أنها لا تشتد فى معاملة غيرها من المسلمين فلا تمنع التوارث بينهما ، ولا النكاح منهم ، ولا تقول بحرمة ذبيحتهم ، ولا تستحل قتالهم قبل توجيه الدعوة اليهم واقامة الحجة واعلان القتال فهم بوجه عام أقرب إلى المسالمة .

مميزات الخوارج ومبادئهم

امتاز الخوارج عن غيرهم بشيئين هما التشدد فى العبادة والإخلاص فى العقيدة :

١ — التشدد فى العبادة والانهماك فيها يصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة ويصفهم المبرد بأنهم فى جميع أصنافهم يبرأون من الكاذب ومن ذى المعصية الظاهرة .

وقد قتل زياد بن أبيه أحدهم ثم دعا خادمه فاستوصفه أمره فقال :

ما آتيته بطعام بنهار قط ، وما فرشت له فراشا بليل قط . يريد بذلك أنه كان يصوم النهار ويقوم الليل .

ولما أرسل على بن أبى طالب عبد الله بن عباس لأهل النهروان من الخوارج رأى منهم جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثفنات الابل عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون .

ومن خير ما قيل فيهم ما قاله أبو حمزة الخارجى فى أصحابه قال : شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصون كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ومضى الشاب منهم قدما حتى تخضبت بالدماء محاسن وجهه ، وأسرعت اليه سباع الارض ، وانحطت اليه طير السماء فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله .

٢ — اخلاصهم لعقيدتهم : من مميزات الخوارج إخلاصهم لعقيدتهم واندفاعهم إلى القتال فى سبيلها لا فى سبيل غرض دنيوى ، ولولا أنهم أخطأوا السبيل وتمادوا على ذلك لكانوا خــــير مثل للمجاهدة فى سبيل الله .

ولقد نظر اليهم كثير من خيرة الناس نظرة عطف وإشفاق فقد روى

أن على بن ابى طالب — رضى الله عنه — فى اخر أيامه قال : لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فأدركه .

يريد ان يقول ان الخوارج طلبوا الحق ، وحاموا عن عقيدة اعتقدوها وان اخطأوا فيها وان معاوية — رضى الله عنه — فكان لا يطلب حقا وإنما كان يطلب باطلا ويحامى عنه وقد أدركه .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج ، انى قد علمت انكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم اردتم الاخرة فأخطأتم سبيلها .

وقد حملتهم قوة ايمانهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهرا ويرسلوا الرسل إلى خلفاء بنى امية يدعونهم ولم يضنوا بأى نوع من أنواع التضحية فتاريخهم مملوء بالشجاعة النادرة يقول صاحب العقد الفريد : وليس فى الافراق كلها اشد بصائر من الخوارج ولا اشد اجتهاداً ولا اوطن انفسا على الموت ، منهم الذى طعن نأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : وعجلت اليك رب لترضى » .

هذه الصفات هى التى خلقت فى الخوارج فصاحة فى الأسلوب ، وقوة فى السبك وبراعة فى تخير الالفاظ فاشتهر منهم مصاقع الخطباء كأبى حمزة الخارجى وقطرى بن الفجاءة وغيرهم .

مبادئهم :

وأما عن مبادىء الخوارج قد كانت كثيرة انفردوا بها عن غيرهم وادى ذلك الانفراد إلى احتدام الخلاف بينهم وبين غيرهم واهم هذه المبادىء ما يلى :

١ — أن الفرد يجب عليه أن يثور عندما تتخطى حدوده وهذا المبدأ هو سبب وجود الخلاف بينهم وبين الدولة .

٢ — أن السلطان حق الله ، فليس لأحد من خلقه أن يدعيه لنفسه وإلا لكان مخالفاً لله وليس لأحد أن يدعى هذا الحق إزاء إنسان آخر من أجل شخصه ويجعله ميراثاً يورث من بعده .

٣ — الخلافة : لما كانت الدولة الإسلامية تؤسس جماعة المسلمين فى اتحاد وسلام وتضع على رأسها كتعبير عن تلك الوحدة إماما ممثلا فى رسول الله — ﷺ — أولا عن الله — عز وجل — ثم فى خلفائه من بعده ويمتد سلطانهم إلى عمالهم المعينين من قبلهم ومادام هـذا الإمام حاكما بأوامر الله سالكا طريق العدل والإنصاف وجبت طاعته ، فإن لم يعتزل وجب الخروج عليه حتى ولو أدى ذلك إلى تفرق جماعة المسلمين ، لأنه لا جماعة فى نظرهم إلا المسلمون المخلصون اشرافا كانوا أم سوقة ، عربا كانوا أم عجما ، لأن المقام الأول إنما هو للأتقى .

كما قالوا إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير فلا يصح أن يتنازل أو يحكم ، وليس بضرورى ألا يكون الخليفة قرشيا بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله .

٤ — ومن مبادئهم أن من تعدى حداً من حدود الله فهو فاسق كافر إذ لا واسطة عندهم بين الإيمان والكفر ، وان الإيمان عندهم تصديق بالقلب وعمل ، فمن صدق بقلبه ولم يعمل فليس بمؤمن .

وقد أمروا عليهم واحداً منهم يسمى عبد الله بن وهب الراسبى .

وسموه أمير المؤمنين ، ولم يكن قرشيا وإنما هو من « راسب ، حي من الأزد ، وكذلك . . أمراؤهم من بعده .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الخوارج كانوا قوما ذوى مبادىء ، ولهم قانون يجمعهم وسلوك دينى يميزهم وتمسك بتعاليم الإسلام بشكل صارم .

« أثر الخوارج فى التشريع »

بعد أن انطفأت ثورتهم وانكسرت شوكتهم ، وتفرقوا إلى فرق لا حصر لها فى أماكن مختلفة اقتصروا فى التشريع على الناحية النظرية ، وكان منهم فرق اختلفت فى آرائها ، فمنهم من يحصر مصادر التشريع فى القرآن وحده ورفض ما عداه ولعل هذه الفرقة هى التى طعنت فى حجية السنة . ومنهم من حصر مصادر التشريع فى الكتاب والسنة التى تروى عن طريق أئمتهم ، ورد ما عداها مهما بلغت من الصحة ، فلم يعترفوا بالإجماع كمصدر من مصادر التشريع ولا بالقياس لأنه رأى والدين لا يؤخذ بالرأى وهؤلاء هم الإباضية الذين لم يزل أتباعهم موجودين فى طرابلس بالمغرب وكذلك فى زنجبار وعمان .

ومما خالف فيه الخوارج ما أجمع عليه المسلمون رجم المحصن فإنهم لا يقولون به ويردون الحديث الوارد فيه لأنه يعارض كتاب الله وهو قوله تعالى فى حق الإماء « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » والرجم لا تنصيف فيه فدل على أن حد المحصن هو الجلد .

كما ردوا حديث لا وصية لوارث لمخالفته آية الوصيـــة وهى قوله تعالى :

« كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين » والوالدان وارثان لا يحجبهما أحد .

كما ردوا حديث « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » لأن الله لم يذكر فى المحرمات غير الأم المرضعة والأخت من الرضاع .

كما ردوا حديث النهى عن الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها لأن الله لم يذكر غير تحريم الجمع بين الأختين ، وقال بعد ذلك « وأحل لكم ما وراء ذلكم » فتدخل المرأة على عمتها وخالتها وكل رضاع سوى الأم المرضعة والأخت من الرضاع .

كما أن لهم تشددات فى بعض العبادات كالطهارة فإنها عندهم نوعان لابد منهما : الطهارة البدنية ، والطهارة المعنوية ، فيشترطون لصحة الطهارة طهارة اللسان عن الكذب والقول الباطل الذى يوقع الغير فى الأذى .

وأن من مبطلات الوضوء الوشاية والعداوة والبغضاء بين الناس والقول الفاحش فمن فعل شيئاً من ذلك فقد انتقض وضوؤه وغير ذلك من التشددات التى ألزموا أنفسهم بها(١) .

والناظر فى تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يكونوا كتلة واحدة وإنما كان واضحاً فيهم الطبيعة العربية البدو ، فسرعان ما يختلفون وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضها بعضا ، لذلك لا نستطيع أن نذكر ما هو من مبادئهم مشترك بين جميعهم إلا نظرية الخلافة ، ونظرية أن العمل جزء من الإيمان . حتى هاتان النظريتان ليستا من اعتقاد جميعهم إلا بقليل من التسامح ، منهم من يرى أنه لا حاجة للأمة إلى إمام وإنما على الناس

---

(١) راجع كتاب حكمة التشريع وتاريخه للدكتور/ حسن الكاشف .

أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ، ويبدو أن هذه الفكرة هى التى كان يفهمها بعضهم من جملتهم المشهورة «لا حكم إلا لله» بدليل ما روى أن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — لما سمعهم يقولون «لا حكم إلا لله» قال : كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله ، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفىء ، ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

وقد قال ابن أبى الحديد : إن الخوارج كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الامام ، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى . والله أعلم(١) .

ثانيا : المعتزلة :

ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية ، وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله — تعالى — وسبب تسميتهم بالمعتزلة ما روى أنه دخل واحد على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان ولا يضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟

فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل ج ٢ ص ٢٧ ، ٢٨ .
وكتاب فجر الاسلام ٢٥٩ — ٢٦٠

لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعـــتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة(١).

وقد اشتهر من أوائل الداعين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد.

فأما: واصل فكان الموالى ولد فى المدينة المنورة سنة ٨٠هـ ثم انتقل إلى البصرة وسمع من الحسن البصرى وغيره، وتوفى سنة ١٣١هـ وكان خطيبا بليغا مقتدرا على الكلام سهل الألفاظ يقول فيه بعضهم:

عليم بأبدال الحروف وقامع   لكل خطيب يغلب الحق باطله

وكان واصل بن عطاء ألثغ — أى لا يستطيع النطق بالراء — ولما كان ذلك الرجل له رأى يدعو اليه ويذيعه ويدافع عنه، ويقارع الابطال بالخطب الطوال وكان ذلك يقتضيه بيانا سليما، وسهولة مخرج، وجهارة منطق وتكوين حروف نجده قد عمد إلى الراء فأسقطها من كلامه، وأبعدها من منطقه ولم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظم له ما حاول، ومن أمثلة مجافاته للراء قوله فى بشار بن برد عندما هجاه فقال واصل: أما لهذا الأعمى الملحد المشنف(٢) المكنى بأبى معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية(٣) لبعثت اليه من يبعج بطنه فى جوف منزله، وفى يوم حفله فلم ينطق بكلمة بشار، أو ابن برد أو غيرهما من الالفاظ التى توجد فيها الراء، وذلك لا يتم إلا إذا كان لدى المتحدث ثروة لغوية كبيرة(٤).

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل جـ ١ ص ٦٥، ٧١، ٧٢

(٢) المشنف: وهو الذى لبس الشنف وهو القرط فى أعلى الأذن

(٣) الغالية أى المنصورية والمغيرية، وهما فرقتان من غلاة الشيعة

(٤) مذكرات فى علم الخطابة للشيخ إبراهيم الدسوقى وفجر الإسلام ص ٩٦

وأما عمرو بن عبيد فهو من الموالى كذلك تتلمذ على الحسن البصرى واعتنق رأى واصل بن عطاء فى الاعتزال، واشتهر بالزهد والورع يصفه إمام الزهاد ابن السماك فيقول :كان عمرو بن عبيد إذا رأيته مقبلا توهمته جاء من دفن والديه وإذا رأيته جالسا توهمته جلس للقود — أى للقصاص — وإذا رأيته متكلما توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا إلا له .

وسئل عنه الحسن البصرى — كما يقول ابن خلكان — فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به وإن قعد بأمر قام به وإن أمر بشىء كان ألزم الناس له ،وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه : ولا باطنا أشبه بظاهر منه ، وكان عمرو بن عبيد صديقا لأبى جعفر المنصور قبل أن يلى الخلافة ،فلما وليها طلب إليه أن يعينه بأصحابه ، فقال له عمرو: إرفع علم الحق يتبعك أهله ، وادعنا بعد لك تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة أردد منها شيئا نعلم أنك صادق .

وكان المنصور ينظر إليه وهو خارج من عنده وقد عرض عليه الدنيا فرفضها فيقول : كلكم يطلب صيدا .. كلكم يمشى رويدا . غير عمرو ابن عبيد(١) .

دور المعتزلة فى الدفاع عن الاسلام :

لقد كان المعتزلة أسرع الفرق الاسلامية فى الاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجد لهم وكان من اشهر الذين استخدموا الفلسفة فى هذا المجال أبو الهزيل العلاف والنظام والجاحظ .

---

(١) عيون الاخبار جـ ٣ ص ٧٢ وكتاب التصوف فى الاسلام للشيخ محمد الصادق عرجون ص ٦٥ ، وفجر الاسلام ص ٣٠١

كما أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الإسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى للهجرة ظهر أثر من دخل الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية فكثير من هؤلاء اسلموا ورؤسهم مملوءة بأديانهم القديمة ولم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين ، وسرعان ما أثاروا فى الاسلام المسائل التى كانت تثار فى أديانهم ، وكان أصحاب هذه الاديان قد تسلحوا من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، فهاجموا الاسلام الذى يمتاز ببساطة عقيدته وأثاروا حوله الشكوك ، وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط بل كانت البلاد الاسلامية مملوءة بذوى الاديان المختلفة الذين ظلوا على دينهم وكان منهم كثيرون فى بلاط الدولة الاموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء وهؤلاء اثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفى وكانت معروفة فى دينهم كما أثاروا مسألة صفات الله، ومسألة خلق القرآن ولها نظير فى النصرانية . كل هذا دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم فجادلوهم جدالا علميا ، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثاره اليهود والنصارى والمجوس من شكوك، ونشطوا لهذا العمل نشاطا بديعا فواصل بن عطاء يقول عنه المرتضى : إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين ، فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم فى فصاحة من القول يصفها بشار بن برد بقوله فيه :

وقال مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب

وتصفه زوجته فتقول : كان إذا جنه الليل صف قدميه يصلى ولوح ودواة بجانبه فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد لصلاته .

ولم يكتف بذلك بل بعث إلى الأمصار يجادلون أصحاب التعاليم المختلفة وينشرون مبادئه فى كل مكان .

وكذلك كان عمرو بن عبيد يجادل مخالفيه ويدعو إلى الاعتزال فى مهارة. ولكن المعتزلة كانوا مكروهين من المسلمين لأسباب كثيرة اهمها :

١ — أنهم خالفوا أهـــل الحديث فى كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة .

٢ — أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة إلى عقيـدة فلسفية عميقة .

٣ — أنهم فى أيام سلطتهم فى عهد الخليفة المأمون والمعتصم نكلوا بالناس فى القول بخلق القرآن، ولم يسيروا سيرة فلسفية فى الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف، وكان فى ذلك ذهاب دولتهم وسمعتهم.

٤ — أنهم أنزلوا الصحابة منزلة سائر الناس ، فلم يقروا لهم بعصمة ، وجرؤوا عليهم يشرحون أعمالهم ويحكمون بصواب بعضها وخطأ البعض الاخر والله أعلم(١).

---

(١) فجر الاسلام ص ٣٠١

المبحث الرابع

اشهر الدعاة إلى الله فى العصر الاموى

مما لا شك فيه ان عصر الخلفاء الراشدين يعتبر ازهى عصور الدعوة الاسلامية بعد عصر الرسول — ﷺ — ذلك أنه كان للدعاة فى هذا العصر من القرآن الكريم والسنة النبوية مدد لا ينفد ومعين لا ينضب كما كانت الكلمات التى تصدر من الدعاة صادرة عن شعور حى وايمان قوى ووجدان صادق مخلص لهذا نفذت إلى القلوب ، وكان لها الأثر الكبير فى السلوك العام والخاص .

قال عمر بن عبدالقيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الاذان .

فلما جاء العصر الاموى كان هناك الكثير من الصحابة الذين تتلمذ على ايديهم التابعون — رضى الله عنهم اجمعين — وظهر من هؤلاء التابعين الدعاة المهرة الذين لا يشق لهم غبار كالحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن المسيب وغيرهم وسأختار من بين هؤلاء نموذجا واحدا لدراسة شخصيته والتعرف على منهجه فى الدعوة إلى الله الا وهو :

عمر بن عبد العزيز :

نسبه : هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن ابى العاص بن عبد شمس بن عبد مناف ، يلتقى نسبه بنسب النبى — ﷺ — فى الجد الخامس أما أمه فهى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ثانى الخلفاء الراشدين(١) .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٣٠ ، وصفة الصفوة جـ٢ ص٦٣

ولد عمر فى المدينة المنورة سنة ٦٢ ﻫ على أرجح الأقوال ونشأ بها فى بيت بنى أمية بين مطارف النعمة ومباذل الجود .

ولما كان عمر فى الرابعة من عمره ولى أبوه على مصر، فلما استقر به المقام أرسل فى طلب زوجته «أم عاصم» فاستشارت عمها «عبد الله ابن عمر» رضى الله عنه وأعلمته بالكتاب الذى أرسله زوجها، فقال لها عبد الله : يابنة أخى هو زوجك فالحق به ثم قال لها : خلفى هذا الغلام عندنا (يريد عمر) فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فتركته عنده، ولم تخالف أمره، فلما قدمت على زوجها سألها عن ولده فأخبرته بما قال عبد الله ابن عمر فسر بذلك عبد العزيز وأرسل إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فأمر عبد الملك أن يجرى عليه كل شهر ألف دينار(١) .

وكانت المدينة المنورة فى ذلك الوقت معهداً للثقافة، ومهبطاً للورع والتقوى وملتقى الزهاد والصالحين ومجمع نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين مثل أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبد الله ابن عبد الله بن عتبة وغيرهم، كما كان فيها جانب الرفاهية وترف الحياة .

كما كانت المدينة من الناحية السياسية منتدى المعارضة التى كانت تستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله — ﷺ — فى مقاومة الحكومة الأموية فى هذا الخضم المليء بالصلاح والورع والعلم المشوب بالترف والنعيم القوى بالحجة والمعارضة نشأ عمر بن عبد العزيز وتأدب بالآداب العالية والأخلاق الفاضلة، فحفظ القرآن وهو صغير ولم يتركه أبوه هملا بل عهد به إلى مرب فاضل وعالم تقى هو «صالح بن كيسان» كما أخذ عمر العلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وفوق ذلك فقد كانت المدرسة الأولى له بيت خاله عبد الله بن عمر .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٢٠

وظل عمر بن عبد العزيز يترقى فى التعليم حتى بلغ درجة عالية جعلته يصل إلى درجة الاجتهاد يرى ويستنبط الأحكام ويناظر العلماء حتى شهد له بالعلم الكثير منهم يقول الإمام أحمد بن حنبل : لاأدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز (١) .

وقال الإمام الليث : رأيت سليمان بن يسار خارجا من عند عمر ابن عبد العزيز فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ، قلت : تعلمونه ؟ قال : نعم قلت : هو والله أعلمكم (٢) .

وغير ذلك شهادة كثير من العلماء له ، وهذا يدل على أن عمر وصل إلى درجة عالية من العلم والفقه فى الدين جعلت هؤلاء العلماء يثنون عليه ويقدرونه هذا التقدير ، وحبب إلى عمر العلم حتى أصبح يتمنى أن يكون الناس جميعهم بين عالم أو متعلم أو محب لهم ، فهو يقول : إن استطعت فكن عالما ، فإن لم تستطع فكن متعلما فإن لم تستطع فأحبهم ، فإن لم تستطيع فلا تبغضهم (٣) .

« عمر الداعية »

لقد أهلت التربية الإسلامية التى نشأ وشب عليها عمر بن عبد العزيز لأن يكون من أقدر الدعاة وأكفئهم فى تبليغ دعوة الله إلى عباد الله ، واستطاع عمر أن ينشر الدين وأن يبصر الناس إلى تعاليمه ؛ إذ أن غاية العلم التى يبتغيها عمر هى إعلاء كلمة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإرشاد الناس إلى طريق الحق ، والنصيحة لهم بالخير .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٩٢ .
(٢) المصدر السابق جـ ٩ ص ١٩٤ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١١٣ .

كما كان يحث خلفاء بنى أمية على التمسك بأهداب الدين ، والرفق بالمسلمين حتى كان يعرض نفسه أحيانا للتهلكة ومواطن الخطر وكان مع سليمان بن عبد الملك بمثابة المشير ، والناصح الأمين فلزمه يهديه ويبصره وسليمان يرد إليه القضايا والمسائل الصعاب فيجد الجواب الشافى عنده كذلك قعد لأهل الشام يستفتونه وكانت المسألة تثقل عليهم ويعجزون عن حلها فيجيئون إلى عمر فيجدون بغيتهم عنده .

فلما ولى عمر الخلافة جند من نفسه ولسانه وكتبه داعية إلى الله — سبحانه لا يفتر عن ذلك مهما شغلته أعباء الخلافة وتكاليفها ، فكانت أول خطبة له عقب توليه الخلافة حث للناس على تقوى الله وطاعته والعمل للآخرة وإصلاح السرائر وادكار الموت ، وحسن الاستعداد له فقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقواه خلف من كل شىء ، واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه الله ـ عز وجل أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم » (١) .

وكان رضى الله عنه فى نصائحه ومواعظه مؤثرا فى النفوس شاحذا للهمم والعزائم لأنها صادرة عن نية مخلصة وقلب صادق ، ولذلك سمعت آذان الناس منه صوتا مؤثرا لم تسمعه من قبل إلا من صوت رسول الله ـ ﷺ ـ وبعض أصحابه ، حتى قراءته للقرآن كانت تنير القلوب والأشجان .

وقد خطب مرة بالقرآن فقرأ « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت حتى انتهى إلى قول الله — تعالى: وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت » بكى أهل المسجد فارتج المسجد كله بالبكاء ، حتى ظنت حيطان المسجد كأنها تبكى معه ومع الناس(٢) .

(١) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٨٥ .

وكان يعظ الناس ويذكرهم حتى إذا رآهم قد أخذوا بقوله ، وفتنوا ببلاغته قطع كلامه مخافة أن يطغى زين الكلام على معناه ، ومخافة المباهاة ، ومع أنه كان شديد التحفظ فى كلامه حتى قيل : ما رؤى رجل أشد تحفظا فى منطقه من عمر بن عبد العزيز مع ذلك كله كان يقطع كلامه إذا فتن به الناس ، وقد خطب ذات مرة فأرق كلامه فأبكى الناس جميعا يمينا وشمالا ثم قطع كلامه والناس ينتظرون أن يكمل ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة وقال : يا أمير المؤمنين كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم ثم قطعت الكلام وهم أحوج مايكونوا إليه فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة(١).

ولصدق عمر فى قوله حسن أداؤه حتى أنه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم ليسمعه ومن أقام ليسمعه المرة تلو المرة ودأْلا يرتحل ، وقد سمعه رجل يقال له عدس بن الفضل « وكان ممن يعجبه القول البليغ والأداء الحسن فسمع عمر يوم جمعة وهو يخطب وكان عدس مسافراً فأقام ومازال مقيما شهراً ما به إلا انتظار الجمعة وانتظار الفرصة للسماع إلى كلامه (٢) .

إن عمر بن عبد العزيز يعد مثالا صادقا للدعاة إلى الله الذين قلما تجود البشرية بمثلهم حيث اجتمعت لديه من العوامل التى تؤهله لهذه المهمة مايندر أن تجتمع فى شخص آخر ، وانفرد بخاصية لم تتوفر لأحد بعده وهى خلافة المسلمين ، وبهذه الخاصية رأى أن الفرصة قد واتته ليقوم بنشر الإسلام بكل وسيلة استطاعها ، فضلا عن خطبه وعظاته فى الأغراض الدينية المختلفة نجد رسائله التى وجهها إلى عماله وولاته على البلاد والتى تجلت فيها قوة إيمانه وحماسته فى نشره لدين الله ، والذى يقرأ هذه الرسائل

(١) المصدر السابق ص ٣٠١ .

(٢) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٩١ .

ويتأملها يجد فيها أسلوب الداعية الحكيم ، والموجه البصير ، والوالد العطوف الناصح لأولاده فى رفق وقوة وفى صراحة وحكمة ، جامعا بين الإدارة والتذكير ، وبين التبشير والإنذار ، كما أن هذه الرسائل التى وجهها إلى عماله وولاته تمثل نفسية الداعى والمرشد والعالم أكثر مما تمثل نفسية الحاكم والأمير ، وقد كتبت فى أسلوب الدعوة إلى الله والحذر من عقابه وسخطه ، وفى أسلوب الترغيب والترهيب فأمر فيها ونهى ووعد وتوعد وحث الناس على التمسك بقواعد الدين والتزام جادة الحق والعدل ، وهذه رسالة يبعث بها إلى جميع عماله وولاته يحثهم فيها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأنهم إن غفلوا عن ذلك نزل بهم عذاب من الله ، أو بأيدى من يشاء من عباده ، وأنه إذا ظهرت المحارم بينهم ولم يوجد من يضرب على أيدى الباطل عم العذاب الجميع أهل الباطل لأعمالهم ، وأهل الصلاح لسكوتهم وعدم منعهم منه والغلظة عليهم الخ .

ونص الرسالة ما يلى : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر فى قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده ، ولا يزال الناس معصومين من العقبات والنقمات ما قمع فيهم أهل الباطل ، واستخفى فيهم بالمحارم ويظهر من أحد جرم إلا انتقموا ممن فعله ، فإذا ظهرت فيهم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصى وعلى المداهنين لهم ، ولعل أهل الادهان أن يهلكوا معهم ، فإنى لم أسمع من كلام الله تعالى فيما نزل فى كتابه عن مثلة أهلك بها أحداً نجى أحداً من أولئك إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر... ثم يقول: ولعمرى إن من الجهاد فى سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله بالأيدى والألسن، والمجاهدة لهم فيه وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته ، وقد بلغنى أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إتقاء التلاوم أن يقال : فلان حسن الخلق ، قليل التكلف ، مقبل على نفسه ، وما يجعل أولئك أحاسنكم أخلاقا وما أقبل على نفسه

من كان كذلك بل أدبر عنها ولا سلم من كلفة لها بل وقع فيها ، إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... ثم يقول : فتسلطوا على الفساق من كنتم فادفعوا بحقكم باطلهم ، ويبصركم عما هم فإن الله جعل للأبرار على الفجار سلطانا مبينا وإن لم يكونوا ولاة أئمة من ضعف عن ذلك باليد واللسان فادفعوه إلى إمامه ، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى قال الله لأهل المعاصى « أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين » (١) .

والمتأمل فى هذه الرسالة يرى من خلالها فقه الداعية البصير بأمور الدين وشئون الأمة حيث يرسم لمجتمعه الطريق الذى ينجيه من الوقوع تحت طائلة عقاب الله وغضبه كما أنها مستمدة من روح القرآن الكريم ومبادئه القويمة المصلحة لكل زمان ومكان .

فقد اشتملت على مبادىء تصلح الأمة باتباعها ، وتنجوا من الشرور والآثام وفى ذلك نجاتها من عذاب الله ، وأهم هذه المبادىء ما يلى :

(أ) أن الشرور إذا تفشت فى أمة ولم يوجد من بين أبنائها من يدفعها فإن الأمة لن تأمن من عذاب الله الشامل للصالح والطالح ، وقد جاء ذلك فى قول الله — عز وجل — « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (٢) وما استحق بنو إسرائيل لعنة الله عليهم إلا لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

(ب) أن الغلظة على أهل الباطل والوقوف فى طريقهم لصدهم عما هم فيه من الجهاد لأنه قطع لدابر الشر من بين صفوف الأمة مهما كان مبعثه من قريب أو من بعيد ولو من أب أو ابن فلابد من مقاومته ، وذلك نوع من طاعة الله — عز وجل — .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص١٣٧ .
(٢) سورة الانفال : ٢٥

(ج) لو اقتصر كل فرد على إصلاح نفسه ، وتركت الأمة بدون توجيه وإرشاد لغلب الباطل على الحق ، وتغلب أولياء الشيطان على أولياء الرحمن فساموهم سوء العذاب ، وهذا مالا يريده الإسلام لأبنائه بل عليهم أن يكونوا ناصحين مرشدين ولولم يكونوا أئمة متخصصين ، أو كانت عليهم ذنوب يحتجون بها عن إرشاد الناس وتوجيههم قال الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول : إنى لأعظكم وإنى لكثير الذنوب ولو أن كل أخ لم يعظ أخاه لترك الأمر بالخير واقتصر على الشر ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب ، وجلاء النفوس ، وتذكير النسيان .

لقد سما عمر بن عبد العزيز بنفسه وبعماله من عالم الحس إلى عالم المعنى وارتفع بهم إلى مستوى روحى يستطيعون من خلاله أن يكونوا دعاة خير وهداية لأقوامهم بفضل ما رسم لهم من تعاليم إسلامية تصلح الفرد والجماعة .

وتتوالى كتبه وتوجيهاته إلى عماله على الأمصار ترسم لهم طريق الإسلام الصحيح الذى حادوا عنها فى خلافة سلفه الذين اعتبروا أن الخليفة رأس دولة منظمة لجباية الأموال ، وحراسة الأرواح والنفوس فقط ولا شأن لهم بما عليه الناس من تدين أو أخلاق ما دامت هذه الأمور لا تتدخل فى شئون الدولة ولا شأن للحاكم أيضاً بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم وبسعادتهم الدنيوية والأخروية وقيمهم الروحية ، فكان رضى الله عنه أول من عنى من خلفاء بنى أمية بناحية تبيين العقيدة الصحيحة للأمة التى هى أول مقاصد البعثة المحمدية ، وأولى واجبات الخلافة الراشدة .

وقد روى عبد الرحمن بن زيد عن أبيه قال : ما طلع علينا كتاب من عند عمر بن عبد العزيز إلا بإحدى ثلاث : إحياء سنة ، أو إماتة بدعة ، أو قسم يقسمه بين المسلمين (١) .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٨١ .

وعناية عمر بالعبادات الإسلامية والتى من أهمها الصلاة لأنها عماد الدين جعلته يبعث بكتبه إلى أمراء الأجناد يحثهم على إقامة الصلاة فى أوقاتها ثم يبين لهم فضل هذه الأوقات، وترك الاشتغال بأمور الدنيا عند حضور الوقت وألا يقعدوا عن آدائها فإن ذلك تضييع لكل شرائع الإسلام، ويحرص عمر على أن تسرى هذه التعاليم فى الأمة مسرى الدم فى الجسد، فيستحث عماله على أن يكتبوها ويبعثوا بها إلى المدائن والقرى النائية، ويأمر أهل العلم والفقه أن يتعهدوا الناس ويبصرونهم بشرائع الإسلام، وهذا نص الرسالة :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد أما بعد . فإن عرى الدين وقوام الإسلام الإيمان بالله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة والمحافظة على أوقات الصلوات فإن وقتها الهجيرة بالظهر ، وصلاة العصر والشمس بيضاء نقية لم تدخلها صفرة ، وصلاة المغرب لفطر الصائم ولا تصلين العشاء حتى يذهب شفق الأفق — وهو البياض — فإذا ذهب فصلها فيما بين ثلث الليل ، وما عجلتها بعد ذهاب بياض الأفق فهو أحسن وأصوب فإن من تمامها وإصابة وقتها انتظار ما وصفت لك فى كتابى هذا منها ، ثم صل صلاة الفجر بغلس ، وحافظ على ذلك فإن المحافظة عليها حق واصبر نفسك على ذلك ، واجتنب الاشتغال [illegible] حضور الصلوات ، واكتب بذلك إلى عمالك بالمدائن والقرى [illegible] فإن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، وإن من يضيع الصلاة [illegible] شرائع الإسلام أشد تضييعا ، ثم أكثر تعاهد شرائع الإسلام [illegible] والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك وليتحدثوا به فى [illegible] والسلام عليك » (١) .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٦٧ .

ما كان عمر يفتر ساعة من نهار عن توضيح سنن الإسلام وشرائعه، وشحذ الهمم على إحيائها ونشرها، ويقول لعماله: اكتبوا هذه التعاليم وابعثوا بها إلى المدائن والقرى حتى لا يكون لأحد عذر فى المخالفة.

والواجب الحتمى على علماء الأمة وفقهائها أن ينشروا الدين والعلم، وأن يجعلوا من مساجد الله مصادر إشعاع تهدى الناس إلى طريق الخير ففى ذلك إحياء لدين الله، وتقوية له فى نفوس معتنقيه، وشرح صدورهم للعمل به.

وقد بلغ من حرص عمر — رضى الله عنه — على سلامة العقيدة والمحافظة عليها من الاختلاف أنه تمنى أن يطول به العمر حتى يوضح للمسلمين فرائض الإيمان وشرائعه وسننه وحدوده التى لا يستغنى مؤمن عن معرفتها، فقد كتب إلى عامل له يسمى - عدى بن عدى - إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص (١).

وهكذا توالت خطبه ومواعظه للأمة، وكتبه ونصائحه إلى عماله وكلها مفعمة بالإرشادات التى تبين للناس طريق الكتاب والسنة حتى يسيروا على هدى الدين فكان نموذجيا، وداعية مثاليا ينبغى للدعاة أن يسيروا على نهجه حتى تسعد بهم أمتهم كما سعدت به.

٢ — إرسال الدعاة والكتب إلى البلاد:

لم يقف نشاط عمر بن عبدالعزيز على كونه داعيا مثاليا يؤدى واجبه نحو تبليغ الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى طريق الحق، ولم يقتصر على

(١) فتح البارى جـ١ ص٤٥ باب قول النبى — ﷺ — بنى الإسلام على خمس.

الكتب التى بعث بها إلى عماله على الأقاليم وأمراء أجناده ، يشرح لهم فيها تعاليم الإسلام التى يجب أن يسير الناس عليها ، ويأمرهم أن يبلغوها للناس فذلك كله فى نظره محدود النطاق ولا يكفيه من الإعفاء من المسئولية أمام الله ، فضلا عن أمله فى تحقيق إمتداد الإسلام إلى أرض جديدة ، وشعوب جديدة حتى يعم الإسلام كل بقاع الأرض ، ويهتدى الناس بنوره ، مهما كلفه ذلك من وقت وجهد .

فبدأ يرسل الدعاة إلى البلاد التى فتحت على المسلمين من قريب وغيرها حتى ينشروا الدعوة ويفقهوا الناس فى الدين ، ففى بلاد المغرب التى فتحت على المسلمين فى عهد عبد الملك بن مروان ، كانت هناك جماعة من البربر الذين أسلموا على يد موسى بن نصير ، وتعلموا القرآن والفقه من العرب الذين كانوا مع موسى ، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ، ولى عليهم إسماعيل بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، فكان حسن السيرة فيهم ، ودعا البربر إلى الإسلام ، كما كتب عمر كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فقرأه إسماعيل عليهم ، فأسلم البربر جميعاً ولم يبق أحد منهم على الكفر (١) .

فلما رأى عمر مدى تقبل هؤلاء للإسلام وكثرة دخولهم فيه ، ازداد فرحا وسروراً ، وأرسل إليهم عشرة من التابعين كأفراس الرهان ليفقهوهم ويعلموهم دينهم ، ويحثونهم على الجهاد فى سبيل الله .

فإذا طلبهم الجهاد جاهد هؤلاء الدعاة بأنفسهم فكل منهم مثل وقدوة ، كما تولوا إلى جانب ما وكل إليهم من الدعوة إلى الله : أمور القضاء والفتوى ، وقد حملوا معهم إلى بلاد المغرب علما كثيراً ، وهؤلاء الدعاة العشرة هم : —

١ — عبد الله بن يزيد .

٢ — موهب بن حى .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٨٩ .

٣ — سعد بن مسعود .

٤ — ابن أبى المهاجر القرشى .

٥ — أبو ثمامة بكر بن سوادة .

٦ — أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع .

٧ — إسماعيل بن عبيد .

٨ — حيان بن أبى جبلة .

٩ — طلق بن جابان .

١٠ — أبو سعيد جعثل .

وكان هؤلاء التابعون أولى قدم راسخة فى العلم والفقه ، حتى أن منهم من كان يسمى تاجر الله لكثرة ما حمل من علم وفقه ، وما قدم من صدقة ومعرفة .

وتجلت حكمة عمر فى اختياره هؤلاء العشرة من الفقهاء فقد ألفهم من قبائل شتى ، حتى يكون لكل منهم صوت فى ناحية من الناس .

كان منهم اثنين من قبيلة معافر ، هما عبدالله بن يزيد وموهب بن حي ، وواحد من تجيب وهو سعد بن مسعود ، وواحد من بنى مخزوم هو ابن أبى المهاجر القرشى وواحد من جذام هو أبو ثمامة بكر بن سوادة ، وواحد من تنوخ هو أبو الجهم عبد الرحمن بن نافع .

وواحد من الأنصار هو إسماعيل بن عبيد الأنصارى ، ولم يكن عمر قد اختارهم جميعا من العرب ومن الأحرار ، بل كان من الموالى واحد هو حيان بن أبى جبلة ، ومن الفرس واحد هو طلق بن جابان ، أما عاشرهم فهو أبو سعيد جعثل .

وقد هاجر إلى الله من هؤلاء الدعاة هجرتين رجلان هاجرا إلى طلب العلم والتعليم ، فلما أدياما عليهما حضرتهما نية الجهاد ، فهاجرا إلى الله مجاهدين . فغرقا فى البحر ، هما أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامى ، وإسماعيل

ابن عبيد الأنصاري الذي كان يسمى تاجر الله لكثرة ماحمل من علم وفقه ، وماقدم من صدقة ومعرفة .

وكان سعد بن مسعود التجيبي معلم العلماء ، كما كان مثالا للدعاة الشجعان الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولا تغشاهم من ملك مهابة مهما كان جبروته وسلطانه ، فكان لا يخشى السلطان في أن يقول كلمة الحق صريحة .

أرسل إليه الرياان بن عبد العزيز ذات مرة ليأتي إلى داره من جامع الفسطاط ، فأبى أن يذهب ، وقال لرسول الرياان : ليس لي إليه حاجة فآتي له ، فإن تك له حاجة فليأت بها ، وبلغ ذلك الرياان ، فجاء مغضبا ، فلما عاتبه قال له سعد : أصلح الله الأمير . دعوتني إلى ما يشينني ودعوتك إلى ما يزينك ، فقال له الرياان : فكيف ذلك ؟ قال : إنه من رآك ماشيا إلى مدحك ، وقال : ذاك طالب علم وخير ، ومن رآني ماشيا إليك رآني طالبا حطاما وعرضا من أعراض الدنيا ، فشانني ، فقال الرياان : سليت والله ما كان بقلبي ونورته نور الله قلبك وعلمك(١) .

وقد أدى هؤلاء الدعاة واجبهم على أكمل وجه ، ونشروا العلم والفقه بين الناس ، وقضوا في الخصومات بالعدل ، وعم النور سائر بلاد المغرب .

ولما قدمت على عمر وفود مناطق التبت . يسألونه أن يبعث إليهم من يعرض عليهم الإسلام ، ويعلمهم الفقه ، فوجه إليهم السليط بن عبد الله الحنفي ، فكان مثالا طيبا للدعاة المخلصين .

كما أرسل عمر إلى عبد الأعلى بن أبي عمرة ليبعثه رسولا إلى اليون طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام .

---

(١) رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ وما بعدها ملخصاً .

فقال عبد الأعلى يا أمير المؤمنين إئذن لي في بعض ولدي يخرج معي، فقال عمر: ومن يخرج معك من ولدك؟ فقال: عبد الله، قال عمر: إني رأيت عبد الله يمشي مشية مقتها، وبلغني أنه يقول الشعر، قال عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين: أما مشيته فغريزة فيه، وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح على نفسه، قال عمر: اذهب فأخرج معك غيره من أولادك(١).

وكان عمر حريصاً على اختيار عماله الذين يلتزمون نفس السياسة التي تسير عليها الدولة وينصبون أنفسهم دعاة إلى الله، ويعملون تحت الشعار الذي رفعه الخليفة الداعية — الهداية لا الجباية، وكان يأمرهم بالدعوة إلى الإسلام، وعمم عليهم كتاباً جاء فيه «إن الله تعالى يبعث محمداً إلى الناس كافة فقال: (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)(٢)، وقال: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)(٣).

فادع إلى الإسلام وأمر به، قال الله تعالى: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين)(٤)،(٥).

ومن ثم نشط عماله في الدعوة إلى الإسلام مخلصين العمل لله، فكان التوفيق حليفهم، واستطاعوا أن يجذبوا قلوب الكثير من الناس الى الإسلام.

حتى أن الجراح بن عبد الله الحكمي، — عامل عمر على خراسان — أخذ يدعو الناس إلى الإسلام، بأمر من عمر، فأسلم على يده نحواً من أربعة آلاف شخص من أهل خراسان(٦).

---

(١) ابن الجوزي ص ٢٢٧ (٢) سورة سبأ آية ٢٨
(٣) سورة الأعراف آية ١٥٨ (٤) سورة فصلت آية ٣٣
(٥) أنظر الكتاب كاملا في ابن عبد الحكم ص ٧٨
(٦) ابن سعد جـ ٥ ص ٣٨٦

وكان حتماً مقضياً أن تدخل أفواج كثيرة فى دين الله على أيدى هؤلاء الدعاة والولاة ، لأنهم رأوا فيهم روح الإسلام الحق ، ونبعه الصافى الذى يروى ظمأهم ويشفى غللهم ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

ولم يقتصر نشاط عمر على هذا ، بل أخذ يرسل الكتب إلى الملوك والأباطرة يدعوهم إلى الإسلام .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان : كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن تبقى أملاكهم وإماراتهم بأيديهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فى الحكم والحياة ، فأسلموا وسموا بأسماء العرب(١)، وأسلم ملك الهند نفسه سنة تسع وتسعين هجرية وأهدى إلى عمر هدية من المسك والعنبر والند والكافور(٢) .

كما دفع عمر برسائله ووفوده إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فاستجاب لذلك الكثير ، تلبية لنداء عمر ، فأمر ببناء الخانات (دور الضيافة) كى تكون لهم محطات يأوى إليها الغرباء والمسافرون والمنقطعون(٣) .

وبلغت الرغبة من عمر فى الدعوة إلى الإسلام ، أن أرسل إلى (ليون الثالث) امبراطور الروم يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام(٤) .

وقد قلت فيما سبق أنه أرسل إلى ملك الروم عبد الأعلى بن عمر ...

---

(١) فتوح البلدان ص ٥٤٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٠

(٣) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٨٩

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٠٢

على ما جاء فى رواية ابن الجوزى ، فيكون قد أرسله بكتاب يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام .

إن ما قام به عمر بن عبد العزيز من جهد فى نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله فى كل مكان ، يجب أن يقوم به حكام المسلمين حتى يمكنوا لدين الله فى الأرض ، وتكون لهم الغلبة والنصر على الأعداء بدينهم وعقيدتهم .

ولما كانت جهود عمر نابعة من قلبه ووجدانه الواثق بنصر الله فإنها كانت ذات أثر عظيم ونتائج طيبة فى كل مكان وجهت إليه .

واستهدف عمر بما فعل اتساع رقعة الأرض التى ينشر فيها الإسلام ، واستمر الصلاح يتسرب إلى الأمة الإسلامية ، واتخذ العلم الدينى والدنيوى سبيله إلى الانتشار ، وسلمه إلى الارتقاء ، وسلمت الأمة من داخلها واستعدت نواتها للبقاء إذا لم تروَ من ظمأ وتنتعش فى نوره وللرقى والنماء إذا خصب لها الزمان وعمت العدالة ، وانطلقت أنفاس الحرية وأشعة الضياء .

٣ — سياسة عمر مع أهل الذمة وترغيبهم فى اعتناق الإسلام :

هذه التسمية تشريف لأهل الأديان والنحل الأخرى ابتدعها لهم الإسلام إذا دخلوا فى عهده ، ولم يحاربوا المسلمين .

وهؤلاء عاملهم عمر معاملة طيبة قامت على أساس من الاحترام ، والود ، فلم يرهقهم ولم يهدم لهم كنيسة ولا بيعة ، ولا بيت نار صولحوا عليه ، وكتب بذلك إلى عماله : « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه (١) .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٦٤

وكانت أول مظلمة ردها بعد توليته الخلافة لرجل من أهل الذمة عندما قال له : أسألك كتاب الله . فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبع ، ورد إليه ظلامته(١) .

إلا أن عمر كان يحرص على دخول أكبر عدد ممكن منهم فى الاسلام ، ومن أسلم تسقط عنه الجزية . ويعامل معاملة المسلمين فى كافة الحقوق والواجبات .

لذلك نراه يكتب إلى عماله كتابا يأمرهم فيه بالدعوة إلى الإسلام ، ويضع لهم القانون الذى يعامل به من أسلم من أهل الذمة ، وجاء فى هذا الكتاب :

(. . . فادع إلى الإسلام وأمر به ، فإن الله تعالى قال: « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين »(٢) .

فمن أسلم من نصرانى ، أو يهودى ، أو مجوسى من أهل الجزية اليوم، فخالط عم المسلمين فى دارهم ، وفارق داره التى كان بها ، فإن له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه ، وعليه مال الصدقة ولا جزية عليه ، وميراثه لذوى رحمه إذا كان منهم يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بينهم ، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم فى مال المسلمين يعقل عنه منه...)(٣) .

ويتبين من هذا القانون أن عمر أعطى لأهل الذمة كافة حقوقهم ، ورفع الجزية عنهم بإسلامهم ، مهما أصاب بيت المال من العجز ، بسبب

(١) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥
(٢) سورة فصلت آية ٣٣ (٣) ابن عبد الحكم ص ٨٨

ذلك ، وجعل لأهل من أسلم الحق فى ميراثه إن كانوا يتوارثون كأهل الإسلام إلى آخره .

وبرفع الجزية عمن أسلم منهم سارعوا إلى الدخول فى الإسلام فنقص مورد الجزية ، مما أدى إلى تذمر عمال الولايات لما أصاب بيت المال من العجز الكبير ، إلا أن عمر التزم بدستوره الذى سنه : (الهداية لا الجباية) .

كتب عمر إلى عامله على خراسان ، أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام ، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فقال له رجل من أشراف خراسان : إنه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية فامتحنهم بالختان ، فقال : أنا أردهم عن الإسلام بالختان ، هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع ، فأسلم نحواً من أربعة آلاف على يد الجراح بن عبد الرحمن(١) ، وفى رواية أخرى أن الجراح كتب إلى عمر أن يمتحنهم بالختان ، فكتب إليه إن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه خاتنا .

ما كان عمر يبتغى ملكاً أو كثرة أموال وضياع ، بل كانت أمنيته أن يرى الإسلام سائدا فى كل بقاع الأرض ففى ذلك سعادته وأمنيته التى يتمناها حتى لو ترك الخلافة وعاش عيشة البسطاء من أبناء الأمة ، يكتب إليه عامله على مصر . مقترحا ، ألا يعفى الداخلين فى الإسلام من المصريين من الجزية . ويقول : إن أهل الذمة قد أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية ، ويرد عليه عمر ، أما بعد . فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابيا ، فإن كان أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية ، فاطو كتابك وأقبل(٢) .

---

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٣٨٦ (٢) المصدر السابق ص ٣٨٢

ويرد على آخر كتب إليه مثل هذا ، فهمت كتابك ، ووالله وددت أن يكون الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا (١).

وبذلك أعلن عمـــر أنه لا جزية على من أسلم من أهل الذمة حتى لو أسلموا كلهم (٢).

ولم يقتصر نشاط عمر بن عبد العزيز فى نشر الإسلام بين أهل الذمة عند حد إسقاط الجزية عمن أسلم منهم بل عمد إلى تشجيعهم على الدخول فى الإسلام بأنواع الإغراء المادى فأعطاهم أموالا يستألفهم بهـا إلى قبول الإسلام ، وقد أعطى فى أحدى المناسبات لقائد نصرانى «بطريق» ألف دينار ألفه بها على الإسلام (٣).

وإنما أعطى القائد هـــذه الأموال لأنه يعلم أن تأليف مثل هذا وأتباعه للإسلام يكون من ورائه الكثير من أهل الذمة يتبعوه فيعتنق اكبر عدد منهم الإسلام ، كما أن فى ذلك أيضا العمل على حماية الدعوة الإسلامية ، وكسب التأييد الخارجى لها باصطناع الشخصيات الكبيرة مثل القواد أو الزعماء ، أو أصحاب الكلمة النافذة فى قومهم وعشائرهم ، حتى تعظم بهم هيبة العقيدة فى الصدور ، أو يتحقق بتألفهم للأمة مصالح سياسية أو اقتصادية أو نحوها :

وقد جاء ذلك فى قول الله سبحانه (والمؤلفة قلوبهم) (٤).

---

(١) ابن الجوزى ص ١٠٠

(٢) وقد وضحت ذلك بالتفصيل فى هذا الكتاب تحت عنوان الفتوح والدوافع الإقتصادية .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٠٢ — (٤) سورة التوبة آية ٦٠

وهذا يدل أعظم دلالة على مرونة الإسلام وعمق تقديره لكيان الأمم ، وعموم إحاطته بأسباب المصالح التي تدعم هذا الكيان وتشد أزره ، ذلك هو تأليف قلب من ترجى مكانته أو مواهبه ، أو نفوذه لدعم هيبة الأمة وعلو مبادئها وخدمة قضاياها وتيسير مصالحها ، سواء أكان ذلك الذى يتألف مسلما أو غير مسلم ، إذا لم يكن سبيل إلى تلك المصالح غير تأليفه (١) .

وفى عصرنا الحاضر تتصارع فيه المبادىء والمذاهب وتتشاجر الأهواء والمطامع وتدبر المكائد والمؤامرات وتقوم فيه الحرب الباردة على الدعايات الواسعة لكسب الرأى العالمى إلى جانب قضية دون أخرى ، وبث العيون فى كل مكان لجمع ما يمكن من الأسرار والمعلومات التى تفيد فى إحباط كيد أو نصرة مبدأ ، أو تحقيق منفعة ومن مرونة الإسلام أنه يرخص فى ذلك أن يتألف غير المسلمين بأموال المسلمين (٢) .

ألا إن الدعوة الإسلامية أحوج ما تكون فى هذا العصر إلى أمثال عمر بن عبد العزيز الذى ضرب فى كل مجالاتها بسهم فأصاب الهدف المرجو ، فهو الداعية المؤثر فى جماهيره بخطبه ومواعظه ، وهو الناصح الأمين فى توجيهاته وكتبه إلى عماله وولاته ، والباعث بالدعاة والكتب لنشر الاسلام بين شعوب وأمم لم تكن تعرف عنه شيئا من قبل والذى استطاع أن يحول الكثير من أهل الذمة إلى أعتناق الإسلام والإنخراط فى صفوف المسلمين بإسقاط الجزية عنهم ثم تأليف قلوبهم بالمال ، إن هذه الجهود العظيمة من عمر سيظل المسلمون يذكرونها بكل فخر وإعزاز إلى ما شاء الله .

---

(١) كتاب الثروة فى ظل الاسلام ص ٢٧٤
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥

جهود عمر فى ميدان العلم

تكلمت فى تعلم عمر عن مدى ما وصل إليه من تحصيل للعلم، وبينت أنه حفظ القرآن وهو صغير، وانشرح صـــدره للدراسة، وأخذ الفقه والحديث والتفسير، عن أجلاء الصحابة وكبار التابعين، كما تعلم العربية وآدابها، ولم يشغله الثراء الذى يتمتع به. عن التعلم بل كان دافعا له على مواصلة الدراســـة والتزود من العلوم المختلفة، وبلغ من استبحاره فى فى العلوم أن شهد له الأئمة والعلماء بالتأبت والسبق :

— قال الامام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز (١).

وقال الإمام الليث : رأيت سليمان بن يسار خارجا من عند عمر، فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم، قلت: تعلمونه ؟ قال : نعم قلت هو والله أعلمكم (٢).

— وقال مجاهد : أتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه (٣).

— وقال ميمون بن مهران : عمر بن عبد العزيز معلم العلماء (٤).

وغير ذلك أمثلة كثيرة تدل على أنه بلغ فى العلم منزلة عظيمة.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ صـ ١٩٢
(٢) تذكر الحفاظ صـ ١١٩
(٤) البداية والنهاية جـ ٩ صـ ١٩٤
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

لكن ماذا كانت جهود عمر فى ميدان العلم بعد توليته الخلافة .
هل انصرف عنه ، وذهب إلى حياة السلطان ورغد العيش والإنغماس فى النعيم ، كما فعل من سبقه من حكام بنى أمية ، أم أقبل على العلم ينشره وعلى العلماء يصحبهم فى مجلسه ، ويستشيرهم فى أموره ويدرس معهم مشاكل الرعية حتى يستنير بآرائهم ؟ .

يتولى الاجابة عن هذا السؤال ما أعلنه عمر عقب توليته الخلافة فى رسمه المنهج الذى يسير عليه فى الرعية ويلتزم به :

قال لجلسائه : من صحبنى منكم فليصحبنى بخمس خصال ، يدلنى من العدل إلى مالا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عونا ، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحدا ، ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا به ، وإلا فهو خرج من صحبتى والدخول على (١) .

وبهذا المبدأ أبعد كل الشعراء والمرتزقة ، والذين ضاق بهم بلاط سلفه السابقين ، ومنعهم من العطايا التى كانوا يحصلون عليها مقابل مدحهم للسابقين بغير حساب .

وحول مركز حكمه إلى ساحة علمية يجتمع فيها علماء الأمة وفقهاؤها يستشيرهم ويستنير بآرائهم حتى يستطيع أن يحقق ما يريده عن بصيرة ويقين .

وكانت أهم الجهود التى حققها فى هذا الميدان مايلى :

---

(١) ابن الجوزى ص ٦٤ ، والبداية النهاية ج ٩ ص ١٩٧ .

(أ) تدوين السنة :

لم يقتصر نشاط عمر بن عبد العزيز على إصلاح نظام الحكم ، وتحويل السياسة المدنية إلى الخلافة النبوية ، بل تعداه إلى نواح كان لها أبعد الأثر وأعمقه فى حياة الأمة الإسلامية ، ولا يزال المسلمون فى أنحاء العالم مدينين له فيها .

لقد كان عمر يرى ضرورة تقييد العلم بالكتابة ليكون بذلك أثبت وأرسخ وأبقى لهذا أقبل على تدوين العلوم الإسلامية ، التى هى أهم منابع الحياة عند المسلمين وقد تعرضت للضياع لانصراف الناس إلى السياسة والإدارة والحروب .

وأول ماعنى به بعد توليته الخلافة هو :

(تدوين السنة) :

لم تدون السنة رسمياً فى عهد الرسول ﷺ كما دون القرآن الكريم بل كانت محفوظة فى الصدور ، نقلها صحابة رسول الله ﷺ ، ورضى الله عنهم إلى من بعدهم من التابعين مشافهة وتلقينا ، وإن كان عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لم يخل من تدوين بعض الأحاديث ، ووردت آثار تدل على هذا إلا أن ذلك لم يكن رسمياً كما كان للقرآن الكريم(١) .

ومن هذه الآثار مارواه البخارى فى كتاب العلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه ، فأخبر النبى ﷺ : فركب راحلته فخطب فقال : إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل — شك من البخارى — وسلط عليهم

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٢١ .

رسول الله ﷺ والمؤمنين وإنها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ، ألا وإنها أحلت لى ساعة من نهار ، وإنها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى يارسول الله ، فقال عليه السلام : اكتبوا لأبى فلان .(١)

وهناك آثار أخرى تدل على أنه دونت أحاديث للرسول ﷺ فى عصره ، من ذلك أيضاً الكتب التى بعث بها إلى ملوك عصره ، وأمراء الجزيرة العربية ، يدعوهم فيها إلى الإسلام وكتبه مع بعض قواد سراياه ، وكان يأمرهم ألا يقرؤها إلا بعد أن يجاوزوا مكاناً معيناً(٢) .

وهذه الكتابة لم تكن عامة بل كانت لأفراد يسيرين وفى حالات خاصة ، وذلك خوفاً من التباس السنة بالقرآن الكريم ، ولنهى الرسول أصحابه عن كتابتها ، وبقيت محفوظة فى الصدور تتناقلها الألسن مشافهة .

وإن كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد فكر فى تدوينها أثناء خلافته ، وإ[illegible] عن ذلك .

[illegible] أخرج البيهقى عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن ، فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنة ،

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٠٥

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى [illegible]

وإنى ذكرت قوما كانو قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى — والله — لا ألبس كتاب الله بشىء أبداً(١) .

وعذره الذى أوضحه يتفق مع الظرف الذى كان فيه المسلمون ، إذ كان القرآن غضا طريا ، والأمم تدخل فى دين الله أفواجا ، فلابد من توفرهم على كتاب الله ، حفظا ودراسة وتلاوة حتى يكون الأساس لعقيدتهم والحامى لها من كل لبس وتغيير .

واستمر الأمر كذلك إلى أن وقعت الفتن ، وانتشر الكذب فى الحديث ، فنهض أجلاء التابعين ومن بعدهم لمقاومة حركة الوضع .

ويشاء الله أن يكون لعمر بن عبد العزيز فضل السبق فى تدوين السنة كما كان لجده عمر بن الخطاب شرف السبق فى جمع القرآن — إذ أجمعت الروايات على أن أول من فكر فى تدوين السنة وجمعها ، هو عمر بن عبد العزيز ، فقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم فى عصره أبى بكر محمد بن حزم عامله وقاضيه على المدينة المنورة (أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء)(٢) وأشار عليه بالعناية الخاصة بجاميع عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارى ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر لأهميتهما ، ولم يكتف بأبى بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله على الأقاليم (أنظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه) .

وبذلك حفظ عمر السنة من الاختلاف والوضع فيها ، ونفذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى جاشت فى نفسه مدة ثم عدل عنها خوفا من التباسها بالقرآن ، أو انصراف الناس إليها .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٧٦

(٢) الندوى ص ٤٢ — ٤٣ عن تاريخ أصبهان لأبى نعيم

والذى يظهر أن ابن حزم كتب لعمر شيئاً من السنة ، فقد أنفذ إليه ما عند عمرة والقاسم ، ولكنه لم يدون كل ما فى المدينة من سنة أو أثر ، وإنما فعل هذا الإمام محمد بن شهاب الزهرى ، الذى كان علما خفاقا من أعلام السنة فى عصره ، والذى كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن أن يذهبوا إليه لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه ، والذى قال عنه أئمة العلم فى عصره إنه لولا الزهرى لضاع كثير من السنن(١).

وبهذا العمل قدم عمر للإسلام والمسلمين خيراً كثيراً حيث حفظ المصدر الثانى للتشريع الذى كاد أن يكون هدفا للضياع ، لقيام الفتن فى البلاد وانصراف الكثير من الناس إلى أمور السياسة ، والإدارة والحروب ، والبعد عن جادة الدين وتعاليمه .

(ب) نشر العلم :

حرص عمر منذ أن ولى الخلافة على نشر العلم بين أبناء الأمة حتى يكون الناس على بصيرة من دينهم وعلى وعى كامل بما تحتاجه منهم أمتهم ، وود لو أن جميع أبناء الأمة أصبحوا ما بين عالم ومتعلم فيقول : إن استطعت فكن عالما ، فإن لم تستطع فكن متعلما ، فإن لم تستطع فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم(٢).

ولن يتحقق له ما يريد إلا إذا تبوأ العلماء مكانتهم اللائقة بهم ومهدت لهم الظروف التى تساعدهم على نشر العلم بين أبناء الأمة ، لذلك نجد عمر يضع ما يسمى بـ (قانون التفرغ) حيث تتولى الأمة كفالة عدد من العلماء

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص١٢٢ — ١٢٣
(٢) ابن عبد الحكم ص ١١٣

والمفكرين كى تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز المشروعات الفكرية التى يعكفون عليها اختياراً ، أو بتوجيه وإرشاد من الأمة .

فأجرى الأرزاق على علماء الجمع والحديث والفقه ورتب لهم الرواتب ، ليكفوا مؤنة الاكتساب ويتوفروا على نشر العلم ، فكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع فى أى بلد إسلامى لغرض التفقه ونشر العلم ، وتدريس القرآن وتلاوته(١) .

وكتب إلى والى حمص : أنظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه ، من بيت مال المسلمين — حين يأتيك كتاب هذا — وإن خير الخير أعجله والسلام(٢) .

وفى رسالة أخرى إلى والى حمص يزيد الخليفة مشروعه توضيحا ، مر لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم لئلا يشغلهم شىء عن تلاوة القرآن(٣) .

ولم يكتف عمر بهذا بل أصدر منشوراً يأمر فيه العلماء أن يعملوا على نشر العلم فى المساجد التى يوجدوا فيها ، حتى لا تحدث عند الناس غفلة ونسيان لأمور الشرع وقواعد الدين ، وجاء فى ذلك المنشور « فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم ، فإن السنة كانت قد أميتت »(٤) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٠٧
(٢) ابن الجوزى ص ٩٥
(٣) المصدر السابق ص ٩٤
(٤) المصدر السابق ص ١٠٣

وكان عمر يعتبر العلم هو الشريان الحيوى الذى يسير فى جسم الأمة فيوقظها بعد سبات ويهديها بعد ضلالة ، وينبهها بعد غفلة ، لذلك نجده لم يكتف باعطاء الأجور للعلماء ولا بالأوامر التى يصدرها إليهم يحثهم على نشر العلم ، بل كان يرسل الفقهاء إلى البادية ليعلموا الناس الدين الذى يجب أن يسيروا عليه ، ويجرى عليهم الأرزاق حتى لا تكون لهم حجة بعد ذلك .

يذكر ابن عبد الحكم : أن عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن أبى مالك ، والحارث بن محمد ليعلما الناس السنة ، وأجرى عليهما الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً . فذكر ذلك لعمر فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث(١) .

وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية وعدم جمود على الأشكال ، حيث أعلن أن أخذ الأموال مقابل الخدمات العلمية أمر لا بأس به ، وسأل الله من جهة أخرى أن يكثر من أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات ابتغاء الأجر من الله .

وبهذا يتبين لنا أن عمر كان شديد الحرص على أن يسود العلم فى كل أرجاء الأمة الإسلامية ، وأن ينتزع من نفوسهم الجهل الذى يورث المهانة والضعة ، ونفر الناس من الجهل كثيراً ، خطب ذات مرة فقال : أيها الناس ، إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشد من الجهل ، ولا داء أخبث من الذنوب ولا خوف من الموت(٢) .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٢٧
(٢) ابن الجوزى ص ٢٠٧

ولقد استطاع عمر بفضل حبه العميق لنشر العلم أن يخلق أجواءاً ثقافية حرة ، وحركة علمية دائبة ، وحواراً فكريا متصلا بين كبار مثقفي الأمة وفقهائها وعلمائها تلك الأجواء التى جعلت عصر عمر — الذى لم يتجاوز السنتين والنصف — يزخر بالكثير من العلماء والفقهاء والمفكرين المبرزين ، مالم يشهده عصر آخر ، كثرة وتركيزاً ، وعمر واحد من هؤلاء العلماء ، يأخذ منهم ويعطيهم ، ويجتمع بهم اجتماع الرفيق برفاقة ، والند بأنداده ، لأنه يعلم أن هؤلاء هم عقل الأمة المفكر ورواد شرفها ورقيها، وتفردها على الأمم ، ومن ثم فان التقدير والمكانة التى حظى بها كل منهم بلغت فى عهد معلم العلماء شأوا بعيداً ، وتأكيداً لما نقول نورد على سبيل المثال هذا الكتاب الذى يبين منزلة العلماء ومكانتهم عنده :

كتب إلى عامله على البصرة ، عدى بن أرطاة «أما بعد . فانك لن تزال تعنى إلى رجلا من المسلمين،فى الحر والبرد يسألنى عن السنة ، كأنك إنما تعظمنى بذلك » .

وأيم الله لحسبك بالحسن البصرى ، فاذا أتاك كتابى هــذا فسل الحسن لى ولك وللمسلمين ، فرحم الله الحسن فإنه من الإسلام بمنزلة ومكان ، ولا تقرءه كتابى هذا »(١) .

وتلك هى قمة التواضع التى تبين لنا مدى التقدير والاجلال من عمر لعلماء الأمة وفقهائها ، مما جعلهم يتسابقون فى إحياء العلم ونشره فى كافة أرجاء الأمة الإسلامية .

ولم تقف همــة عمر على العناية بعلوم الدين وبذل كل ما يستطيع

---

(١) ابن الجوزى ص ١٠١

لنشرها ، بل تعدى ذلك أيضاً إلى علوم الدنيا ، ولا سيما الطب ، لشدة حاجة الأمة إليه لوقاية أبنائها من الأمراض التى لو تركت بدون علاج لا أضرت بهم .

وليس يخفف عن الناس أعباء الحياة ، إلا إذا سعدوا بالعدل ، وتنوروا بالعلم فى صحة أبدان وسلامة إيمان ، فكان عمر أول خليفة أموى حارب فقر الناس وجهلهم وأمراضهم ، وحاربها بقوة فى مختلف بلاد المسلمين .

كان عبد الملك بن أبجر — أو ابن بحر الكنانى ، طبيبا عالماً ماهراً فى الطب وكان يتولى تدريس الطب بمدينة الإسكندرية ، ولما أستولى المسلمون على البلاد اصطحب ابن بحر الكنانى عمر بن عبد العزيز فى شبابه ، واستطبه ، وقد تأثر ابن بحر بعمر فا أسلم على يديه .

فلما صار عمر خليفة استعان بصاحبه ، واعتمد عليه فى تدريس علم الطب بأنطاكية وحران وغيرهما من البلدان ، فانتقلت بذلك صناعة الطب اليونانى إلى بلاد المسلمين(١) .

كما أمر عمر بن عبد العزيز ، الطبيب البصرى اليهودى (ماسرجويه) بترجمة كتاب فى الطب ، كان عمر قد وجده فى خزائن الكتب ، فأمر بإخراجه وترجمته ، ووضعه فى مصلاه ، واستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين لينتفعوا به ، فلما تم له ذلك ، أربعون يوما ، أظهره للناس وبثه فى أيديهم(٢) .

وبذلك ازدهر علم الطب فى عصره ، وتعلمه أناس كثيرون ، فخفف كثيراً من الامراض التى لو تركت بدون علاج لفتكت بأبناء الامة ،

---

(١) الخليفة الزاهد ص ٢١٧ (٢) فجر الإسلام ص ١٦٣

ودب الضعف بين صفوفها وهذا ما يحاربه عمر ، لأنه يحرص على أن تكون الأمة قوية فى إيمانها ، سليمة فى أبدانها ، حتى تستطيع أن تصد كيد المعتدين ، وأن تنشر فى كل مكان كلمة الله ، وتعاليم الإسلام .

(ج) منهجه فى تربية أبناء المسلمين وتعليمهم :

لقد وصل عمر إلى حقائق جديرة بالتقدير والإعجاب فى رسمه لمنهج التربية القويم ، الذى يسعى فيه إلى تكوين طفل مسلم موحـــد الذات والأهداف غير منقسم على نفسه بين القول والعمل ، أو بين الواقع والمثال ، طفل ينمو ويكبر ، وهو يحس أن قراءة القرآن الكريم والتشبع بآدابه وأخلاقه ترتبط إرتباطاً شرطيا بركوب الخيل وتعلم الرماية وفنون الحرب والفروسية ، وأن الفطام منذ هذه المرحلة عن الترف والملذات والملاهى هو الذى يخلق الرجال .

لقد اختار عمر لأولاده المؤدب الصالح ، واختاره بعد العلم به ، والثقة فيه ولم يدعه دون أن يزوده بنصحه ، ويمده برأيه وخبرته .

فحين اختار سهلا « مولاه » لتأديب أولاده قال له : إنى اخترتك على علم منى لتأديب ولدى ، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالى ، وذوى الخاصة بى(١) .

ثم رسم له طريق التأديب ومنهاج الدراسة ، فطلب إليه أن يجفو فى كلامهم حتى يكون ذلك أمعن لإقبالهم ، وطلب إليه ألا يصحبهم كثيراً لتظل له مكانته ، وطلب إليه أن ينهاهم عن كثرة الضحك حتى لا تموت قلوبهم ، وأن يبغض إليهم الملاهى لأن حضور المعازف والاستماع إلى

---

(١) ابن الجوزى ص ٢٥٧

الأغانى والطرب مما ينبت النفاق فى القلب ، وهذا أمر حق ، فان الإنسان متى استسلم لشهواته واتبع هواه . ولم يحمل نفسه على الآداب الكريمة . مالت إلى البهيمية ، فكثرة المزاح كثيراً ما تخرج الإنسان عن حد الاعتدال ، وجموح النفس إلى القبيح طريقة مرذولة وسلوك سيء ، فمن شأن المضحك أن يتطلب أموراً معدولة عن وجهها الحقيق حتى يستثير تعجب السامع وضحكه ، وهو النفاق الذى يبغضه الدين ، وتأباه كرامة الإنسان .

يقول عمر لمؤدب أولاده : فخذهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة فان عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول مايعتقدون به من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن ، فانه بلغنى عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف واستماع الأغانى واللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب الماء(١) .

ولم يقف عمقه الفكرى فى رسمه طريقة التربية المثلى عند هذا الحد ، بل تعداه إلى رسم المنهاج القويم للدراسة ، حيث طلب إلى مؤدب أولاده أن يأخذهم بطريقة فضلى تجمع بين المداومة على مذاكرة القرآن وتحصيل العلم ، وتكوين الرجولة الصادقة ، فقد طلب أن يفتتحوا كل يوم بجزء من القرآن ويتثبتوا فى قراءته ، ثم يتناولوا بقية العلم الذى يدرسوه فإذا فرغوا تناولوا القسي والسهام ، وخرجوا إلى الغرض حفاة ، فرموا به سبعة أرشاق ، ثم ينصرفوا بعد ذلك إلى القيلولة ليستريحوا .

تجلى ذلك فى قوله إلى المؤدب « وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن

---

(١) المصدر السابق نفس الصحيفة .

ويتثبت في قراءته ، فإذا فرغ تناول قوصرة وتمله ، تخرج إلى الغرض ثانيا فرمى سبعة أرشاق ثم انصرف إلى القائلة »(١) .

فكان هذا منهاجا قويماً يجمع أبناءه وأبناء الأمة الإسلامية على الدين والدنيا ، ويراوح بين الروح والبدن ، وبين القول والعمل ، وذلك ما يجب أن يترسمه المسلمون في تربية أولادهم وتعليمهم من فنون الرياضة ما يخلق فيهم القوة في العقيدة والأبدان وقد اشترط عمر في معلم أبناء الأمة عدة شروط التي بها يصبح مؤهلا لحمل هذه الأمانة .

بأن يكون على قدر كبير من التدين وعلو الهمة ، وأن يكون متضلعا في الفقه ، ذا رأى ثاقب ، وبصيرة نيرة ، وأن يكون ذا جود و كثرة معروف ، كما أنه في اختياره المعلم لم يفرق بين عربي وعجمي ، ولا من كان أصله حراً وأصله عبد ، فالعلم عند الله يعطى عباده من يشاء منه(٢).

ولعمرى لو سارت مناهج الدراسة الحديثة على الطريقة التي رسمها عمر ابن عبد العزيز منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان ، وربى أولاده وأمته عليها وآتت ثمارها طيبة في أجيال بنوا لأمتهم حضارة لا يزال العالم كله عيالا عليها ، لو استنار القائمون بوضع قوانين التربية بهذه التعاليم التي بينها عمر ، لخرجوا للأمة شباباً مؤمناً بربه ، واثقاً بدينه ، مدافعاً عن مبادئه ووطنه وكرامته ببسالة وعزيمة صادقة ، ونهضوا بدينهم وأمتهم إلى أعلى درجات المجد ، ومراقي الشرف والعزة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين(٣)] .

ولعله قد آن لكل منصف أن يقول : إن عمر بن عبد العزيز كانت

---

(١) ابن الجوزى ص ٢٥٨
(٢) الخليفة الزاهد ص ٢٢٠ (٣) سورة المنافقون آية ٨

له فى ميدان العلم قدم راسخة وجهود جليلة لم تتيسر لأحد قبله من بنى أمية أو بعده ، كل واحدة منها غرة فى جبين الدهر ولايزال المسلمون يذكرونها بكل تقدير وإعجاب ، ومن الواجب أن نختم جهود عمر فى الإسلام بهذا الحديث الشريف والذى قرر الامام أحمد بن حنبل على ضوئه أن عمر بن عبد العزيز هو المجدد للأمة دينها على رأس المائة الأولى :

قال الإمام أحمد بن حنبل : يروى فى الحديث ان الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها فنظرنا فى المائة الأولى فاذا هو عمر ابن عبد العزيز ، ونظرنا فى المائة الثانية فنراه الشافعى(١) .

وقد جاء الحديث فى سنن أبى داود بهذا النص :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها(٢) .

فكانت الجهود التى قام بها ، والتى ذكرت الكثير منها جديرة بأن تجعله المجدد للدين على رأس المائة الأولى ، وكفى بالإمام العظيم أحمد ابن حنبل حكما .

---

(١) ابن الجوزى ص ٩١
(٢) سنن أبى داود ح١ ص ٣١

وفاة عمر

تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين(١) .

عاش عمر بن عبد العزيز حياة حافلة بالكفاح الدائب ولم يفتر لحظة عن آداء حق الله ، أو حق نفسه ، أو حق أمته .

فمنذ صغره حفظ القرآن الكريم ، ثم رغب فى العلم فتلقاه عن صحابة رسول الله ﷺ ، وكبار التابعين ، حتى أصبح معلم العلماء ، ثم تولى الامارات فسار فى الناس أحسن سيرة ، وفوق هذا فان مواقفه مع الخلفاء الامويين ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم الى الحق ، حمله الكثير من العناء والتعذيب منهم ، فلما آلت إليه مقاليد الخلافة حول مجرى الحياة إلى ما كانت عليه فى عهد جده عمر بن الخطاب مع الفارق الكبير بين عهده وعهد جده، حيث انه ولى خلافة أمة وقد أصبحت ملكا عضودا يتوارثه الأبناء عن الآباء وما فيه من ترف وانغماس فى التنعم ، فنجح عمر فى تحويلها إلى خلافة راشدة نجاحا منقطع النظير على الرغم من قلة الأعوان الذين تاهوا فى الزحام ، ثم رأى عمر بعد هذا كله أنه أخذ من الدنيا كل ما يريد فلم يبق فى نفسه إلا لقاء الله سبحانه وتعالى ، والانتقال إلى الدار الآخرة فهو يقول : ان لى نفسا تواقة كلما ذاقت شيئا تاقت إلى ما هو أرفع منه ، ولقد رأيتنى وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان ، ثم تاقت نفسى إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت الى الامارة فوليتها ، وتاقت الى الخلافة فأدركتها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء فى الدنيا

---

(١) سورة القصص آية ٨٣

فوقها تاقت نفسى الى ما عند الله فى الآخرة(١) .

وكان عمر قد ذهب إلى قرية تسمى دير سمعان فأصابه المرض وظل يشكو عشرين يوما ، ثم الحت عليه الشكوى تسعة أيام ولما ثقل عليه المرض أتى له بطبيب فلما نظر اليه قال :

لقد سقى السم ، ولا آمن عليه الموت ، ثم قال : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قد عرفت حين وقع فى بطنى ، فقيل له لو تداويت ؟ قال : لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها ، نعم المذهوب إليه ربى ولم يلبث حتى مات رحمه الله(٢) .

وكانت وفاته يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة وهو ابن تسع وثـلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأيام(٣) .

وآخر ما سمع منه من الكلام قوله تعالى : «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين»(٤) .

وخير ما نختم به هذا الحديث نورد ما ذكره صاحب الحلية فى وصفه لعمر بن عبد العزيز وصفا جامعا . فيقول : كان واحد أمته فى الفضل ، ونجيب عشيرته فى العدل . جمع زهدا وعفافا ، وورعا وكفافا ، شغله آجل العيش عن عاجله ، والهاه اقامة العدل عن عاذله ، كان للرعية أمنا وأمانا ،

(١) ابن عبد الحكم ص ٦١ ، ابن الجوزى ص ٦٦

(٢) ابن الجوزى ص ٢٧٧ — ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ١٦١، ١٦٢

(٣) ابن الجوزى ص ٢٨٦ ، جوامع السيرة ص ٣٦٢

(٤) ابن سعد جـ ٥ ص ٤٠٦

وعلى من خالفه حجة وبرهانا ، كان مفوها عليما ومفهما حكيما(١) .

رحم الله عمر بن عبدالعزيز ، وجزاه خير ما يجزى به عباده المخلصين لما قدمه من خير للإسلام والمسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين الذين اهتدوا بهدى الدين ، وساروا على الصراط المستقيم ، فرضى الله عنهم اجمعين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) الحلية حـ ٥ ص ٢٥٤

أهم المراجع

١ – القرآن الكريم
٢ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير
٣ – تفسير النسفى ٤ – تفسير المنار . رشيد رضا
٥ – فتح البارى شرح صحيح البخارى . ابن حجر العسقلانى
٦ – صحيح مسلم شرح النووى ٧ – سنن أبى داود
٨ – طرح التثريب فى شرح التقريب للحافظ العراقى
٩ – زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية
١٠ – الطبقات الكبرى لابن سعد
١١ – جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
١٢ – الملل والنحل للشهرستانى ١٣ – الكامل للمبرد
١٤ – سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى
١٥ – صفة الصفوة لابن الجوزى
١٦ – سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم
١٧ – فتوح البلدان للبلاذرى
١٨ – تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون
١٩ – الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام
٢٠ – تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى
٢١ – الخلفاء الرشدون للشيخ عبد الوهاب النجار
٢٢ – رجال الفكر والدعوة فى الإسلام لأبى الحسن الندوى
٢٣ – حكمة التشريع وتاريخه للدكتور حسن الكاشف
٢٤ – مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ الزرقانى
٢٥ – دراسات قرآنية للدكتور سيد احمد المسير
٢٦ – الدعوة إلى الإسلام لتوماس آرنولد ترجمة حسن إبراهيم

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٢٧٧ / ١٩٨٩ م